الفصل الاول

تمهيـــــد

لاجل أن نتبين التربية الملائمة لمخلوق من المخلوقات يجب أن ننظر الى مواهبه الراهنة ثم الى مواهبه الكامنة ، أي الى ما هو عليه الآن وما عسى أن يكون عليه في مستقبل الايام

فكل سعي يرمي الى ترقية المرأة واصلاح شؤونها ينبغي أن يتقدمه درس واف في اخلاقها واطوارها ، ثم في مصيرها وغايتها التي يمكن أن تبلغها

وهذا هو الغرض الذي نرمي اليه في هذا الكتاب

مباحث الكتاب

ويجدر بنا عند بدء عملنا أن نلقي نظرة شاملة الى المباحث التي ينبغي لنا أن نطرقها فنقول :

ان اخلاق المرأة بوجه عام ، أو اخلاقها بوجه خاص في زمان ومكان معينين ، تقف على عاملين أساسيين :

أولهما حالتها الاجتماعيـة في العصور السالفة . فان جانباً عظيماً من اطوارها ومنازعها يرجع الى طريقة تربيتها ونوع معيشتها على ممر الاجيال

وثانيهما تكوينها الجسماني . أي تركيب اعضائها وما لوظائفها الحيوية في مزاجها من أثر . وهذا العامل أشد من العامل الاول واعظم شأناً

فلا بد لنا اذاً من الابتداء بدرس هذين العاملين

أما فيما يخص العامل الاول ـ أي العامل الاجتماعي ـ فسننظر فيه الى شأن المرأة في الماضي لنرى كيف تطورت حالتها في العصور المختلفة وما كان من تأثير ذلك في اخلاقها . وسيظهر لنا في اثناء هذا الدرس كيف تخصص الجنسان بالتدريج في الوظائف الاجتماعية فاحتاز كل فريق جانباً منها وتحددت مناطق العمل بينهما . ولعل ذلك يحدونا الى التريث بدعاوي القائلين بالمماثلة التامة بين الرجل والمرأة اذ يتضح لنا أن تلك المماثلة مخالفة للطبيعة ومضادة لمجرى التقدم البشري من قديم الزمان

على اننا سنرى من جهة أخرى أن المرأة ـ وان تكن قد تميزت عن الرجل شيئاً فشيئاً في الوظائف والاعمال ـ فانها ما برحت تسمو الى مستواه في الشأن والمقام . حتى اصبحت مثيلة له في نظره هو اولاً ، وفي نظر الشرع والعرف ثانياً . ولا يُظن ان في هذا القول تناقضاً . فليس التميز في العمل دليلاً على التفاوت في المرتبة ، كما أن التساوي في المكانة لا يعني التماثل في الوظيفة

ومهما يكن من ذلك فانه يتعذر علينا انكار ما قد جاهرت به غير واحدة من أن الفروق التي نشاهدها بين اخلاق الجنسين ـ وان تكن باعثاً على تميز وظائفهما الاجتماعية ـ فانها من جهة أخرى تنشأ وتتميز بفعل تلك الوظائف نفسها . حتى لقد غالى البعض في هذا الرأي فقالوا أن الطبيعة منحت الرجل والمرأة مواهب متماثلة وأن ما بينهما من الفروق لم ينجم الا عن العادات والشرائع . على أن قليلاً من التفكير يبين لنا وجه المغالاة في هذا القول : اذ كيف نعلل نشوء العادات ومن الشرائع ، على صورها التي عهدناها ، ان لم يكن لها في الطبيعة مصدر تستوحيه وأساس تقوم عليه؟ ومع ذلك فلا ريب في أن العادات والقوانين قد ضخمت الفروق الاصيلة وبعّدت مسافة الخلف بين الجنسين . ولما كانت القوانين والشرائع انما هي في الغالب من وضع الرجل فلا يسعنا الا التسليم نوعاً ما بصحة ما قالته امرأة في الدفاع عن جنسها وهو قولها : « تكاد معائبنا تكون جميعاً جرائم اقترفها الرجل » ، وما قاله غريم (من اهل القرن الثامن عشر) وهو قوله : « ان معظم النقائص التي نعيبها على المرأة هي من صنع الهيئة الاجتماعية والتربية الفاسدة . . . »

أما العامل الثاني ـ وهو العامل الجسماني الفسيولوجي ـ فلا بد لنا من تمحيصه وانعام النظر فيه . فلقد ارتكب بعض الكتاب اغلاطاً جسيمة في هذا الباب ووصموا المرأة بما لا ينطبق على الواقع ، كميشله الذي مثّل لنا المرأة كأنها مريضة بفطرتها على ان هذا الدرس خطير الشأن . فينبغي ان نتفطن على الدوام لاهمية الفوارق الطبيعية بين الجنسين . « فالجنس أصل من التربية » كما قال مودسلي ، أي ان المميزات التي منحتها الطبيعة للمرأة أثبت وأعمق من الصفات التي قد تكتسبها بالتربية . وعلى هذا لا نرى داعياً لتخوف البعض من انقلاب المرأة رجلاً بفعل التعليم والتربية . فانه يتعذر على الانسان مجاوزة الحدود التي أقامتها الطبيعة له

ومتى أحطنا بالعوامل الرئيسية التي اعتملت خلق المرأة تيسر لنا درس ذلك الخلق بالتدقيق . وقد يرى قوم في الاقدام على هذا الدرس جرأة لا يسهل تبريرها ، اذ يتساءلون : هل في الامكان تحديد مميزات المرأة واستبانة أخلاقها مع ما هي عليه من التكتم والتقلب ؟ فالجواب انه قد يصعب الوقوف على أخلاق امرأة واحدة ـ وسنرى فيما يأتي سبب ذلك ـ وأما النساء اجمالاً فان كان ثمت ما يميزهن عن الرجال في شعورهن وذكائهن وسلوكهن ، فان من الميسور استجلاء ذلك واستخلاصه بالمقابلة بين الجنسين

وسيستغرق هذا الدرس قسماً كبيراً من الكتاب لانه يبين لنا الاساس الذي ينبغي لنا اعتماده في تربية المرأة وتهذيبها ، فضلاً عن انه في نفسه شيق ممتع

و بعد هذه المقابلة يجدر بنا ان نقول كلمة عن مصير المرأة وغايتها ، أي ان ندرسها ـ لا كما كانت في الماضي ولا كما هي اليوم ـ بل كما تستطيع ان تكون وكما ينبغي ان تكون . واذا عرفنا ذلك أدركنا ماهية التربية التي بها تستعين المرأة على تحقيق غرضها من الحياة . فعلى معرفة الغاية يقف اختيار الوسيلة

ولا بد لنا في أثناء ذلك من البحث في الحركة النسائية واستقصاء أمرها . فانها ذات شأن في هذا العصر ، وقد تؤدي الى احداث انقلاب خطير في المجتمع العمراني تنال معه المرأة مكانة لم تعهدها في العصور الغابرة . على ان مطالب النساء لا تزال مضطربة غير واضحة ، ولم تتفق الاراء بعد في هذا الموضوع . ولكن مما لا ريب فيه أن تلك الحركة ما برحت تعظم وتتضخم في الزمن الحديث ، ولا سيما ان نفراً من كبار الكتاب والفلاسفة ـ كجون ستيورت ميل ـ دعموها بنفوذهم ومؤلفاتهم

مصادر الكتاب

وخليق بنا الآن ان نرى أي المصادر نعتمد للقيام بهذا الدرس وأي المناهج نسلك . كثيرة هي المؤلفات التي تكلمت عن المرأة . ولكنا لكثرتها لا نذكر لها قائمة في أول هذا الكتاب حسب العادة المألوفة . لا لاننا لم نطالعها أو لم نستفد بمطالعتها ، بل لتبعثر فوائدها وتشتت موضوعاتها . فقد يطالع الواحد كتاباً كاملاً فلا يجد فيه الا اليسير من الآراء والمعلومات الجديرة بالحفظ والتدوين ، فضلاً عن خلو معظم الكتب في هذا الباب من المباحث الجدية المتماسكة الاطراف على أسلوب منطقي معقول

ولعل أغزر المصادر وأفضلها ما خلّفه الكتاب الاخلاقيون ـ مثل لابرويير ولاروشفوكو وبسكال ـ ولا سيما الذين طرقوا منهم موضوع تربية البنات ـ كفنلون ومدام نكردي سوسور ومدام دي رموزا ـ وأخص بالذكر أيضاً أولئك الذين كان لهم من مهنتهم الاكليريكية ما سهل لهم مهمة الاطلاع على مكنونات قلب المرأة ـ كونسنيور دوبانلو

اما الآثار الادبية المتداولة ـ كالروايات على أنواعها ـ ففيها بعض الفوائد . ولكن لابد لطالبها من الغوص عليها لاستكشافها في مخبآتها . ومع ذلك فان هذه الآثار أجمع للعبر من تلك التي تقتصر على مدح النساء أو ذمهن لمجرد المدح أو الذم ومن غير الاعتماد على أساس علمي صحيح . خذ مثلاً بوسويه الكاتب الفرنسي الشهير فانه أراد الحط من مقام المرأة بتذكيرها انها استخرجت من جنب الرجل وصنعت من عظمة اضافية لا شأن لها . على ان مريدي الجنس اللطيف اعتمدوا على هذه القصة نفسها لبيان تفوق المرأة . فقالوا ان الله برأ الخلق مبتدئاً باحط المخلوقات ثم تدرج الى أرقاها . فكما ان آدم سما على سائر الخليقة ، كذلك حواء التي جاءت بعده سمت عليه لانها أتم منه وأقرب الى الكمال : فقد صنعت من عظمة والعظم أمتن الاجزاء في الانسان ، بل من ضلع ، أي من أسمى جهة في الجسم وهي جهة القلب . ومن هذا القبيل أيضاً استشهاد البعض بتجسد السيد المسيح ـ وهو ابن الله عند النصارى ـ في شكل رجل لا في شكل امرأة . وعلى ذلك يجيب الفريق الآخر انه انما فعل ذلك من قبيل المغالاة في الاتضاع . وقس على ذلك اقوالاً كثيرة قد تلذ مطالعتها على سبيل الفكاهة ولكن يستحيل اتخاذها أساساً لبحث جدي مفيد

ولا يبرحن من الذهن ان الذي كتب عن المرأة في الغالب انما كان الرجل . ولو انها كانت الكاتبة لرأينا الحال بخلاف ذلك . بل انه حالما أتيح لها ابداء رأيها أسمعت الرجل تظلمها وشكواها وهزءها أيضاً واتهمته بالاثرة والاستبداد

وان أقل قيمة في نظري من كل ما طالعته في هذا الباب نصائح المتقشفين والقديسين الذين ناصبوا المرأة العداء فنهوا عن معاشرتها بل حرموا الاقتراب منها ، كأنها في نظرهم مخلوق نجس مخيف . على انهم بذلك انما يقيمون بيننا وبين معرفتها سداً منيعاً ، فليست المسبة حكماً وأحرى بها ألا تكون درساً . بل اني أرى في تلك الاقوال تكريماً للمرأة واعترافاً بسلطتها . فان وصف المرأة بانها شيطان ، وتسميتها « مشعل

الشيطان » و« باب جهنم » ، وموافقة ترتوليان على قوله ان « رؤيتها شر وسمعها أشر ولمسها مريع » ، وتفضيل « صفير الحراذين على غناء المرأة » كما قال القديس سيبريان ، وترديد قول الجامعة « وجدت أمر من الموت المرأة التي هي شباك وقلبها اشراك و يداها قيود » — كل ذلك انما يدل على اقتدار المرأة وسطوتها ، وليس يدل على انصاف قائليه أو صدق نظرهم

فلئن سلمنا للرجل بان المرأة تحدث المتاعب له ، حق علينا ان نسلم لها ان الرجل يحدث المتاعب لها أيضاً : لانهما يتبادلان التأثير على الدوام . واذا كان ثمت ما يعادل الشر الذي تحدثه لنا النساء فما ذلك الا الشر الذي نحدثه نحن لهن

ولذا فاول مايتحتم علينا في درسنا ان نبدأ بطرح تلك السفاسف والاقاويل جانباً . كما اننا لن نستعين بالآثار الادبية الا لتستحثنا على درس المسائل التي تخوضها لا للاعتماد على آرائها

أما مصادرنا الحقيقية فهي الطبيعة والتاريخ والعلم ، وعلى الخصوص الحياة الاجتماعية التي نشاهدها كل يوم

روح الكتاب

ولنبين الآن المبادىء التي نعتمدها في درسنا هذا والروح العامة التي نسترشدها في خلال ما نطرقه من المباحث . فتلك مسائل يحسن الاجابة عنها قبل الدخول في جزئيات موضوعنا

مهما تكن في المرأة اوجه النقص والضعف التي قد وصفتها او تصفها بها علوم التاريخ والنفس والفيسيولوجيا فان لها رغم ذلك شخصية مستقلة ، اي انها كالرجل مخلوق ذو غاية من الوجود يدأب في بلوغها . ولئن سلمنا بالفوارق الجسمانية والعقلية بين الرجل والمرأة فليس يترتب على ذلك تسليمنا بتفاوتهما في القيمة . فاختلاف المواهب لا يمنع التساوي في المكانة . بل ان الطبيعة قد ميزتهما وحددت لكل منهما مجالاً يعمل فيه . فليس ثمت تساو بينهما الا في تنويع عملهما

على ان هناك توافقاً اساسياً يجمعهما رغم ذلك . والا لما امكن اتحادهما وائتلافهما : فانهما الشطران اللذان يؤلفان « الانسانية » . وبهذا الاعتبار يشتركان فيما للانسان

بصفة كونه انساناً ـ من الحقوق البديهية وما عليه من الواجبات الاولية . فاذا نظرنا الى المرأة هذا النظر لم نبخسها قسطها من المقام والشأن ولم نتردد قط في انماء « بشريتها » ومنحها نصيبها من لذات الحياة الجسمانية والعقلية والاجتماعية

ولئن سلمت مع العلم الاجتماعي الحديث بان تقسيم العمل بين الجنسين مقياس للرقي والتقدم الا اني ـ بصفة كوني اخلاقياً ضميماً ـ ارى المقياس الامثل لذلك في مبلغ الاحترام الذي تناله المرأة ، في رفعة شأنها وعلو مكانتها ، في التساوي المعنوي الذي تقره العادات والشرائع والرأي العام

ولهذا المبدأ نتائج خطيرة الشأن فيما يتعلق بتربية المرأة . فانه ينبغي تهيئتها للتمتع بالحياة التامة كي تعرف الواجب وتقدر المسؤولية . وبعبارة أخرى ينبغي تربيتها التربية الوافية ، لا تدريبها فقط على ارضاء الرجل والخضوع له . ولئن فرضنا على المرأة طاعة الرجل فان من الواجب أن تصدر تلك الطاعة عن رضى وقبول ، لا عن قهر واضطرار . وليس ضعف المرأة ـ اذا كان فيها ضعف ـ حجة لحرمانها من لذة العلم والحقيقة والاكتفاء بتكييفها وفقاً لاهواء الرجل ورغائبه . بل ينبغي أن نقول مع فنلون : « كلما كنّ ضعيفات تحتم علينا تقويتهنّ » . وليس ما يقوي حياة المرأة المعنوية سوى غرس المبادئ الصالحة فيها وتدريبها على الحكم والتمييز لوحدها واقامة مثل اعلى لها تطمح اليه بما فيها من شعور وعقل وارادة

قالت مدام دي ريموزا : « لن يكون عقل المرأة في أمان ما زال محكم الاقفال لا تنفذ اليه الافكار العامة . فاذا جاء زمن تزعزعت فيه سلطة العادة والتقليد ـ وهما القوتان اللتان تحفظانها ـ فعلى أي مبدأ تسير حينئذٍ وأي طريق تسلك بعد فقدانها ما كان يحميها ويرشدها ؟ » هذا ما قالته تلك الكاتبة البصيرة ولا ريب في ان هذا القول شديد الموافقة لعصرنا هذا الذي تزعزعت فيه اركان كل قديم مألوف . فان روح الحرية العامة التي بها يمتاز هذا العصر قد تسربت الى المرأة : فتراها اليوم تطالع الصحف وتحضر التمثيل وتسمع كل ما يقال حولها وترى كل ما يجري امامها ، وبعبارة وجيزة انها تتنشق بحكم الاضطرار جو العصر الحاضر بكل ما فيه من العناصر الصالحة والفاسدة . وسواء أرضي الرجل بهذه الحال أم لم يرضى بها فقد اصبح من المتعذر اليوم اغتيال المرأة حريتها . وانما السهل الميسور تدريبها على استعمال تلك الحرية بالحكمة

والبصيرة . فلا خلاص لنا ولها الا بجعلها رزينة رصينة حتى تصبح رشيدة نفسها

هذه حقيقة لا تقبل نقضاً . ولئن تحسر بعضنا على انقضاء الزمن الغابر فليس في استطاعتنا اعادته . على اني لست من الذين يتحسرون على الماضي ـ وسأبين سبب ذلك بعد . والجملة انه ينبغي تربية المرأة بنفس العناية الممنوحة لتربية الرجل ، ولسنا نريد بذلك أن تكون التربيتان متماثلتين

ان من الخطأ المبين عد المدنية كأنها صنع معشر الرجال وحدهم . فالنساء ـ حتى متى يخضعن لنا وفي حين نحكمهن وتتحكم بهن ـ صاحبات تأثير شديد في الهيئة الاجتماعية . وقد أصاب شريدان عين الحقيقة في قوله : « النساء يحكمننا فلنجعلهن كاملات . فكلما زدناهن نوراً زدننا استنارة . فعلى تهذيبهن تقف حكمتنا » . أجل ، انه لمن الغريب ان يكون الرجل قد تعامى عن مصلحته أو أساء فهمها الى حد ان أهمل تربيـة تلك التي تحمل اسمه وتربي أولاده وتتصرف بشرفه

فهل من يجهل ان من المحال على الرجل ان يفصل بين شرفه وشرف امرأته ، وان يحتفظ بمقامه اذا لم تحتفظ هي بمقامها ، وان يكون عالي الرأس اذا كانت خافضته ، وان يقوم بكل الواجب عليه اذا لم تعنه عليه بعطفها وحسن معاملتها ؟

واذا صح ذلك في الحياة الفردية فلا ريب في انه ينطبق على الحياة العمومية أيضاً . قال فنلون : « ان الرجال ـ وان كانوا أصحاب السلطة السياسية ـ لا يستطيعون بقراراتهم توطيد أي اصلاح ما لم تعنهم النساء على تنفيذه » . وما ذلك كما قال كوندورسيه « الا لان الرجال يصنعون القوانين والنساء يصنعن العادات والاخلاق » . ولله در ادجار كينه القائل : « . . . وهكذا تشترك النساء مع الرجال في تكوين الجماعات . فان اجسامهن لا تحمل الاطفال فقط بل تحمل الشعوب » . لذلك يجدر بنا ألا نقنع بتربية النساء تربية سطحية لاجل الزينة والزخرفة فان البلاد في حاجة ماسة اليهن : فاذا لم يكن رصينات لم يكن كذلك اخوتهن وازواجهن واولادهن ، واذا لم يقمن بوظيفتهن خير قيام تعذر على اولئك اتمام ما هو مفروض عليهم نحو قومهم و بلادهم

وعلى المرأة في المقام الاول ان تدرك شأنها في حياة المنزل وان تبذل جهدها لكي يسود فيـه السلام والنظام والحبور وكل ما يقرب ويجذب وما يجعل الاسرة متحدة سعيدة شريفة . هذه هي على الخصوص وظيفتها الاجتماعية ، تلك الوظيفة الطيبة المباركة .

ولكنها لا تقوم بها أحسن قيام الا اذا كانت على بينة من أمرها ، حتى تعرف الواجب عليها وتدرك خطورة شأنها من الوجهة الاجتماعية ، فترى الوطن خلف العائلة والجامعة الكبرى خلف الجامعة الصغرى

لقد اجمع الناس اليوم على ضرورة تهذيب الشبان تهذيباً جدياً متيناً ، حتى يصبحوا خدمة صالحين للوطن . على ان ذلك لن يتأتى لنا ما لم تربَّ البنات ايضاً ليكن زوجات وأمهات صالحات لتلك الناشئة . فما اعظم العون الذي يجنيه المشتغل في الحياة العامة متى كان بجانبه امرأة نيّرة تدرك معنى الواجب والخدمة والوطن !

فالنساء كالرجال يجب أن يقوى فيهن الشعور بالمسؤولية وروح التعاون حتى يتم ائتلاف الطبقات الاجتماعية ويخيم السلام . ولست تجد مسئلة من المسائل الخطيرة اليوم ـ واولها مسئلة حقوق المرأة ـ يستطيع الرجل ان يبت فيها وحده ، بل يتحتم عليه استشارة المرأة واستمالتها الى جانبه . والا فالنزاع يكون كريهاً ومنهكاً لقوى الفريقين . وما عسى ان يكون امر جماعة لا يحفظ النساء فيها غير سطوة الرجال ؟

انه ينبغي تربية البنات لا لفائدتهن فقط بل لفائدة الوطن والجمعية البشرية ، سواء في ذلك بنات العامة و بنات الخاصة . ولا يجوز عد المرأة ـ من أي الطبقات كانت ـ مخلوقاً للزينة والزخرفة فقط . فذلك يحط بجدارتها وسعادتها كما يخل بوظيفتها الاجتماعية

ولقد أدرك المعنيّون بامر مستقبلنا انه يتعذر علينا اصلاح عاداتنا وأخلاقنا من غير معاونة النساء . فلئن كان لضعفهن وطيشهن يد في قعودنا وتقهقرنا فلا نجاة لنا الا بتربية المرأة التربية الصالحة المتينة وانماء شعورها وفكرها وارادتها

الفصل الثاني

حالة المرأة الاجتماعية في الماضي

قلنا ان طبائع المرأة نتيجة عاملين : حالتها الاجتماعية في الماضي ، وتكوينها الجسماني . وسندرس العامل الاول في هذا الفصل

تقلب حالة المرأة

ليس غرضنا ان نصف حالة المرأة وتقدمها المطرد منذ أقدم الازمنة الى هذا اليوم — تفصيلاً بل ولا اجمالاً . لاني أرى هذا المسعى عديم الفائدة فضلاً عن انه متعذر التحقيق. وذلك لسبب جوهري وهو اني كلما تقدمت في الحياة ضعف اعتقادي بارتقاء عام متواصل، ولا سيما فيما يخص البشر . فالارتقاء — حسب قول ليبنتز — لابد ان يتخلله هبوط وتردد

لنأخذ مصر مثلاً : نستدل على حالة المرأة المصرية القديمة مما جاء في مؤلفات الاقدمين التي وصلتنا ومن الآثار والرسوم الكثيرة التي استكشفت حديثاً . فانه يؤخذ منها جميعاً ان المرأة كانت رفيعة الشأن . وشتان بين حالتها في ذلك الزمن وحالتها اليوم : فقد كانت تشتغل في مهام المنزل وتصنع المنسوجات وتشارك الرجل في لذاته فتجلس بجانبه في الولائم والاحتفالات الدينية . واذا كانت شابة تزينت بالحلي والازهار وأبهجت المجتمعات بجمالها وغنائها واذا كانت هرمة نالت — كالاب — اكرام أولادها وتبجيلهم . فكنت أينما ذهبت تجد المرأة في مستوى الرجل ، ويظهر ايضاً انه كان لها وظائف كهنوتية خاصة بها . فبعد هذا الوصف لا نتردد في قولنا ان مكانة المرأة المصرية في هذا العصر دونها في تلك العصور . ومن ذلك نرى انه يتعذر علينا التسليم بارتقاء شامل مستديم

على انه سواء كان ثمت ارتقاء أو لم يكن فلا غنى لنا عن درس حالة المرأة في الازمنة السالفة وفي المدنيات الغابرة لنستجلي ما كان من تأثير تلك الحالة في خلقها على وجه الاجمال

قياس الرقي

من هذا الدرس يتبين لنا انه كلما تقدمت جماعة في ميدان الحضارة زاد التخصص في الاعمال بين رجالها ونسائها . وأقل ما يكون هذا التخصص في أحط الجماعات

البشرية . ففي القبائل المتوحشة تكاد الاعمال تكون مختلطة بين الجنسين : فترى المرأة تتصيد مع الرجل وتحارب مثله وتعاني ما يعانيه من المشاق والاهوال . ويرجح ان القبائل البشرية في أول عهدها عاشت جميعاً على هذه الصورة ، ثم تميز بعضها بالتدريج من ذلك الخواء الاجتماعي وتقدم في سبيل العمران ، في حين ان البعض الآخر ظل على تلك الحالة المختلطة

ولعل الزواج — حتى في أحط صوره وأبهمها كدوري تعدد الازواج وتعدد الزوجات — كان بدء التميز في ذلك الخواء . ثم ان هذا التميز لم يلبث ان ازداد وضوحاً فتقسمت الاعمال شيئاً فشيئاً وتخصص الجنسان في أعمالها ولا سيما بعد استقرار الزواج على أرقى صوره — نعني زواج رجل واحد بامرأة واحدة . فقد ثبّت المرأة في وظيفتها المنزلية وأقرها على ادارة مملكتها البيتية ، في حين أتاح للرجل ان يعمل في الخارج للارتزاق بالغزو أو الصيد أو الزرع أو غير ذلك من الاعمال الرجلية التي تميزت تدريجاً عن أعمال النساء

بل ان هذا القياس — قياس التمدن بدرجة التخصص — يصح اعتماده أيضاً للمقارنة بين الدول الحديثة . فاننا اذا نظرنا الى الامم الاوربية الحاضرة ، أو الى أهل مقاطعات مختلفة في الامة الواحدة ، وجدنا ان أرقاها في الحضارة والمدنية أبعدها في تميز الجنسين الواحد عن الآخر واكثرها تقسيما للوظائف والاعمال بينهما . والعكس بالعكس . ففي المدن الغربية الكبرى حيث يبلغ الرقي أعلى درجاته تجد التخصص والتفارق في أتم صورهما . اما في المزارع والحقول فالحال بخلاف ذلك اذ تجد أوجه الشبه كثيرة بين الرجل والمرأة في الاعمال والعادات والاخلاق بل وفي المظهر الجسدي ايضاً

الا اننا نرى احياناً في ارقى الجماعات البشرية ، في اقصى ما بلغه الترفه والتمدن ، نوعاً من المعيشة تكاد تمحى فيه الفروق بين الجنسين . اذ تشترك النساء في مهام الرجال وملاهيهم ، كما ان هؤلاء يشاركون أولئك في تخنثهن ورخائهن . فتلك المعيشة المخالفة لسنة الطبيعة ليست الا نذيراً بالتقهقر والانحلال الاجتماعي

على أن اختلاف الاعمال لا يدل على الارتقاء الا اذا رافقه تساوٍ في المقام ، بحيث لا يكون احد الفريقين مستعبداً للآخر ، بل يتعاونان كلٌ حسب قدرته في الغاية المشتركة بينهما ، وهي سعادتهما وتربية اولادهما . ولاريب في اننا اذا درسنا حالة المرأة بانصاف

حكمنا بان الرجل ما برح يعـدها وسيلة لا غاية بحد ذاتها ، مما حمل المرأة على التخلق باخلاق خاصة تطلبها الرجل . فاضيفت بذلك فروق جديدة الى الفروق الناشئة عن تقسيم العمل بين الجنسين . ويكفي أن نلقي نظرة اجمالية الى حالة المرأة في الماضي لنتيقن من صحة ذلك .

الاستشهاد بالقوانين

وينبغي لنا ان نميـز جيداً بين العادة والقانون : فان العادة تتقدم القانون . ونعني بذلك أن القوانين ليست في الغالب الا تقريراً للعادات المصطلح عليها ـ وان لطفتها وهذبتهـا في بعض الاحيان . ولما كنا لا نعرف الا القليل عن العادات المألوفة عند الاقدمين (وذلك القليل لا نكاد نعرفه الا بواسطة آثارهم الادبية) فسنعتمد على القوانين المدونة في درس حالة المرأة ، ولاسيما ان العادات كثيراً ما كانت تتغير بين عصر وعصر بل بين طبقة وطبقة . أما القوانين فمعلومة ثابتة يستطيع الانسان أن يدرسها مباشرة . فتلك خير الطرق في نظرنا لمعرفة حالة المرأة في الازمنة السالفة وعند الشعوب المختلفة بشيء من الدقة والضبط

على انه خليق بنا قبل ذلك ان نشير الى ان المرأة ـ حتى في احط الجماعات البشرية ـ تحرك في الرجل بجمالها وجاذبها عاطفة « الحب » ، وهي اسمى عاطفة لديه كما انها في الغالب مصدر معظم عواطفه الطيبة . مما يحمله ـ حالما يجوز دور الحيوانية الصرفة ـ على معاملتها بشيء من الرفق والحنان . وهو ما حدث في جميع الازمنة والامكنة ، ولو بصفة وقتية عرضية

الهند

ان حضارة الهند القديمة كانت على الارجح منبت الحضارتين اليونانية والرومانية . ولا ريب في انها قد طبعتهما بطابعها في شأن المرأة كما طبعتهما به في سائر الشؤون . فانك تجد في شريعة مانو بنداً يتلخص فيه نظر الاقـدمين الى المرأة وهو : « المرأة تابعة لوالدها في طفولتها ، ولزوجها في شبابها ، فاذا مات زوجها تبعت ابناءها ، واذا لم يكن لها ابنـاء تبعت اقارب زوجها ، لانه يجب ألا تترك المرأة لنفسها في حال من الاحوال »

اليونانية

هذه حالة المرأة اليونانية ايضاً . فقد كانت بمنزلة القاصرة طول حياتها لا تملك امر نفسها ولا تستطيع ان تتصرف في شؤونها . فلم يكن لها بد من سيد يعنى بأمرها : وهو إما والدها اذا كانت فتاة ، او زوجها اذا تزوجت ، او ابنها او اقارب زوجها اذا ترملت . وقد كان للزواج عندهم غرض واحد وهو حفظ الاسرة . فلم يكن لذلك بين الزوجين رابطة معنوية الا بالقدر الذي كان يشاؤه الرجل ، كأن هذا الامر موقوف على ارادته وحده

فاذا كان الرجل طيباً رقيق الشعور احب امرأته واكرمها وعاملها باللين ، بل قد تتغلب عليه في بعض الاحوال وتتحكم به متى كان ضعيفاً . فذلك انما يقف على الامزجة والعادات . وعلى هذا يجوز لنا ان نسلم بصحة المشاهد العائلية الصالحة المرسومة على بعض القوارير اليونانية القديمة ، وان نصدق وصف كزينوفون الكاتب اليوناني للحياة البيتية الهنيئة في عصره . ولكن ذلك كله ليس مدعماً بأوامر الشريعة اليونانية ونواهيها . والحقيقة ان المرأة لم تكن عند سواد اليونانيين الا بمنزلة «أم الاولاد» فقط ، او كالناظرة الامينة على الدار وما فيها . ولم تكن المسافة كبيرة بينها وبين عبيد زوجها . فانها لم تتزوجه مختارة بل زوجوها من غير استشارتها . واذا لم تلد له اولاداً او لم ترق في عينيه طلقها بسهولة في حين انها لا تستطيع تطليقه الا باقتحام الصعاب — على فرض انها تجرأت وطلبت ذلك . وللرجل ايضاً — وهو في قيد الحياة — ان يهدي امرأته بموجب وصيته الى اي صديق يختاره ، ولا بد لها من تسليم نفسها متى حكم عليها بذلك . ثم ان المرأة لا تستطيع ان تبيع لحسابها او تشتري بقيمة تزيد على خمسين ليتر شعير ، فضلاً عن انها لا تستطيع القيام باي عمل شرعي . ولا عبرة بقول تميستوكل المأثور : « ان ولدي اقدر اليونانيين : فاني احكم على اليونانيين ، وامه تحكم عليَّ ، وهو يحكم على أمه »

والجملة انه لم يكن للمرأة سلطة الا بقدر ما كان يسمح الرجل . هذه هي الحقيقة التي لا جدال فيها . وقد حدث ان الرجل كثيراً ما منح معشوقته (غير الشرعية) — التي كان لها من طلاء تربيتها وبراعتها في الحديث واستقلالها بعاداتها ما يجذبه ويأسره — اكثر مما منح امرأته الشرعية المنزوية في بيتها مع خادماتها ، وهي تكاد تشبههن في جهلها وقلة صقلها . فكأن المرأة كانت على وجه الاجمال احدى اثنتين : خادمة او خليلة

على ان ذلك التميز لم يجاوز قط حداً معلوماً . فقد كانت المرأة في نظر الجميع ـ وفي مقدمتهم الفلاسفة ـ مخلوقاً ناقصاً ليس له من الفضائل الا ما كان من قبيل الطاعة والخضوع . وهذا هو رأي ارسطو الصريح فقد قال : « ليست حكمة الرجل كحكمة المرأة . . . فن الطبيعة عينت الحالة الخاصة بالمرأة وبالرقيق » . وكيفما قلبنا المسألة وجدنا ان هوة عميقة كانت تفصل الجنسين . ومن السهل بعد ذلك ان ندرك السبب الذي كان اليونانيون من اجله يغتبطون لدى ولادة الذكر فيبشرون الاصدقاء باكليل من ورق الزيتون يعلقونه على باب المنزل

رومة

اما في رومة فقد قال كاتون الروماني جملة (اوردها تيت ليف) تلخص لنا رأي الرومانيين في هذا الموضوع وهي قوله : « Nunquam exuitur servitus muliebris » اي ان نير المرأة لا يخلع

ففي رومة كما في اثينا ـ بل اكثر ـ كانت المرأة تحت الوصاية من المهد الى اللحد . وللتعبير عن حالتها هذه كانوا يقولون انها « in manu » اي في اليد . فقد كانت طول حياتها تحت سلطة سيد : وهو اما الاب او الزوج او الابن او قريب الزوج . ولم يكن الرومانيون مع خشونتهم وقسوتهم ليخففوا من صرامة القانون بهذا الشأن . فاذا اصاب المرأة عندهم شيء من الاحترام فما ذلك الا لكونها ام الاولاد وخفيرة الاماكن المقدسة في المنزل . اذ لم يكن الزواج الا وسيلة لاستمرار العائلة وعبادة الاسلاف . وقد كان للرجل ان يقتل امرأته بيده اذا ارتاب في سلوكها كما كان له ايضاً ألا يعترف بأولادها

ولكن المرأة الرومانية التي كانت بمقام الرقيق لم تلبث ان اعتقت لما استرخى سيدها . بل لقد بلغ الرخاء والفسق بين الرومانيين مبلغاً هائلاً حتى اصبح ساسة رومة ولا همّ لهم الا ملافاة ذلك . على انه ليس ابلغ من تلك الحالة نفسها للدلالة على الجحيم الذي تهبط اليه المرأة ـ ان لم تدرب على احترام نفسها وتحمّل تبعة اعمالها ـ حالما تفك الاغلال التي تأسرها . فليس الاستقلال المنشود اباحة الفسق والانغماس في المفاسد وانما يتأتى عن طريق الكرامة والاحترام المتبادل

ولا يخفى ما كان للقانون الروماني من الاثر العظيم في مدنيـة الغرب فقد اتخذته معظم الدول الاوربية ولاسيما اللاتينية منها اساساً لنظامها الاجتماعي . ولا تزال آثاره بادية في حكم الزواج المعروف عند الغربيين فانه مستمد في الغالب من القانون الروماني

النصرانية

كان للنصرانية يد في رفع شأن المرأة وتخفيف الحيف الواقع عليها ـ ان لم يكن من طريق المباشرة فمن قبيل التهيئة . على ان النصرانية قد ترددت احياناً في اعترافها للمرأة بالمقام الجدير بها . فانها شديدة الارتباط بالديانة اليهودية من جهة و بالحضارة الرومانية من جهة اخرى : وقد رأينـا مكانة المرأة في رومة ، وانها لم تكن بأفضل منها عنـد اليهود الذين عدوا المرأة دون الرجل بمراحل . ولا يخفى ان مجمع ما كون في القرن الخامس للميلاد بحث في هل للمرأة نفس كالرجل ولم يكن جوابه على هذا السؤال بالايجاب الا فيما يخص مريم العذراء والدة الله . ثم ان آباء الكنيسة وقديسيها كثيراً ما اهانوا المرأة لكونها تجربة للرجل ومجلبة للخطية . ناهيـك بانه ليس للزواج في نظر الكنيسة ـ و بالزواج وحده تتم المرأة غايتها من الحياة ـ ذلك الشأن الذي يستحقه ـ وان يكن معدوداً من الاسرار الكنسية ـ فان العزوبة عندها أفضل من الامومة

كل ذلك ليس من مصلحة المرأة في شيء . وانما قلنا ان النصرانية ساعدت على رفع شأنها بمعنى انها أذلت الرجل وحطت من كبريائه وجعلته نظير المرأة وعدته موصوماً مثلها بالخطيئة الاصلية لا خلاص له الا بالتوبة . ثم ان الزواج الكنسي لا يُحل ، والامانة من واجب الزوجين على السواء . و بعبارة أخرى انهما يتساويان بازاء الواجب وشروط الخلاص

فرنسا والامم الغربية (١)

اما الغاليون (وهم سكان فرنسا الاصليون) فقد كانت المرأة عندهم وضيعة ذليلة .

---

(١) لم يذكر الكاتب شيئاً عن المرأة العربية . على ان حالها لم تفضل حالة شقيقاتها ولاسيما بعد تعميم الحجاب . قال جرجي زيدان : «كانت المرأة العربية في اوائل

فالى الرجل كان يرجع امر حياتها او موتها ، كما انه كان له ايضاً حق تطليقها متى شاء . على ان حالتها تحسنت بالتدريج . فلما رحل قيصر القائد الروماني الى تلك البلاد كانت العروس تجلب معها « دوطة » فيضيف الرجل اليها مبلغاً معادلاً لها . وفي ذلك ضرب من المساواة بين الفريقين — ولو في الظاهر

كذلك كان الامر عند الفرنك وغيرهم من الاقوام الذين نزحوا الى فرنسا . فان المرأة في اول عهدهم كانت تشرى كما يشرى المتاع . ولكن ما لبثت تلك العادة ان اضمحلت . حتى انه في زمن تاسيت المؤرخ الروماني لم يبق لها الا اثر ضئيل في تبادل الهدايا بين العروسين كأن في ذلك رمزاً عن المساواة . ولعل الهدايا المألوفة في الافراح اليوم من بقايا تلك العادة . والجملة ان المرأة الفرنكية لم تكن ملكاً لزوجها يتصرف بها كيف شاء ، بل كانت شريكته لها املاكها الخاصة ولها ايضاً ان ترث اقرباءها بل ان ترثه هو اذا توفي قبلها ، كما انها في العصور الاولى كانت شريكته في الغزو والحرب

من تلك العوامل جميعاً ومن مقتضيات الاحوال نشأت المدنية الفرنسية في القرون الوسطى . ولا يخفى ان النظام السائد في ذلك الزمن كان نظام الاقطاعات féodalité وهو انما يقوم على تأدية الخدمة العسكرية . فكان مفروضاً على كل اقطاعة تجهيز عدد معين من الجنود . ولذا لم يبح للنساء امتلاك الاقطاعات في اول الامر . زد على ذلك انه كان للاولاد الذكور امتياز على البنات في امر الوراثة كما انه كان للبكر امتياز على اخوته ، بحيث كان امتلاك الاقطاعة ينتقل في الذكور فقط من البكر الى البكر . ولئن اشتهر ذلك العصر

الاسلام مثال الانفة واستقلال الفكر وقوة العقل والنفس في حين كانت المرأة الغربية في غياهب الجهل والذل . فلما استبحر عمران المسلمين واشتد الحجر على المرأة في اثناء الاجيال الاسلامية الوسطى انحطت أخلاقها حتى صارت الى ما يشبه المروي عنها في الف ليلة وليلة . فان هذه القصة الخيالية مع ان فيها مبالغات كثيرة تمثل الآداب الاجتماعية في تلك العصور المظلمة وتدل على سوء ظن الرجل في المرأة أو سوء الظن المتبادل بينهما ، وتدل دلالة صريحة على ان الحجاب لا يمنع وقوع الفساد والخيانة » (الهلال سنة ٢٢ صفحة ١٧٤)

بصفات الفروسية وبما كان للمرأة فيه من الاجلال والاكرام في المجالس والاحتفالات العمومية فان ذلك كله لم يكن الا غشاء ظاهرياً . وليس ادل على حقيقة حالها من نصوص القوانين وصرامتها فيما يخصها . وقد شبه احد كتاب ذلك العصر نساء ايامه المبجلات المعظمات « بالميا كل المصرية الفخمة من الخارج بينما لا تجد في داخلها الا قرداً او هرة او جدياً »

على ان العادات لطفت تلك الصرامة شيئاً فشيئاً الى زمن الثورة الفرنسية التي اعلنت المساواة بين الجنسين في المسائل المدنية (ابريل سنة ١٧٩١) ومنها نشأت المساواة الوراثية بالغاء امتيازي البكورة والذكورة . فمن ذلك الحين اصبح لدى المرأة ما يضمن لها كرامتها واستقلالها : فاذا لم تتزوج استطاعت ان تتصرف بمالها كما تشاء . اما اذا تزوجت فانها تضطر الى التخلي لزوجها عن شيء من سلطتها . ولكنها مع ذلك لا تتزوج الا برضاها . ثم ان نظام « الدوطة » يجعل شيئاً من المساواة بين الزوجين

والجملة ان سلطة الزوج تغيرت تغيراً اساسياً . فبعد ان كان مؤداها محو شأن المرأة لعدها قاصرة اصبحت ترمي الى حمايتها وحماية الاسرة والاولاد مما قد تنقاد اليه بقلة اختبارها

على انه لا يزال للعزبة امتيازات على المتزوجة ، كأن الزواج يقلل من شأن المرأة ونفوذها بوضعها تحت حماية الرجل . ولعل هذا ضروري لسلامة العائلة التي هي جرثومة الاجتماع كما لا يخفى . ومع ذلك فلا يزال مجال الاصلاح واسعاً في هذا الموضوع

تأثر خلق المرأة من حالتها الماضية

بقي علينا الآن ان نستخلص من هذه النظرة الشاملة ما كان من تطور خلق المرأة وفقاً لمقتضيات احوالها :

قد كان لماضي المرأة بلا ريب اثر عظيم في نفسها . اذ حملها على التخلق باخلاق اقتضتها حالتها ، غير ما غرسته فيها الطبيعة من المواهب الفطرية . وقد تثبتت فيها تلك الاخلاق المكتسبة مع توالي الاجيال . ومما زادها — ويزيدها — وضوحاً : التربية و « الانتخاب الجنسي » . فبالتربية تدرب الفتاة على السجايا المرغوبة فيها فتقوى

تلك السجايا بالتمرين ، و بالانتخاب الجنسي تنمو فيها الصفات التي تروق للرجل (اذ انه لا يتزوج الا من اتصفت بها فتتوارث تلك الصفات من جيل الى جيل وتبرز شيئاً فشيئاً ، في حين أن الصفات المكروهة تضعف وتتلاشى لاجتناب الرجل كل امرأة متصفة بها . وهذا هو المراد من قولنا « الانتخاب الجنسي »)

فما هي اذاً الصفات والسجايا التي اكتسبتها المرأة من ماضيها ؟ أما من الوجهة الجسمانية فقد اكتسبت ضعف العضلات والجسم عموماً ، وهو نتيجة معيشتها الهادئة بالنسبة الى معيشة الرجل . وأما من الوجهة المعنوية فالصفات التي برزت فيها هي : الميل الى الحياة البيتية ، والعناية بمهام المنزل ، والحياء والخوف ، والجلد والصبر ، والاهتمام بالجزئيات والامور الدقيقة ، والسعي الى اجتذاب الرجل وارضائه لان عليه يقف كل شيء ، والطاعة واللين ازاء رب الدار وصاحب القوة والسلطان (وذلك يجعلها تخشن الكلام مع من دونها من الخدم كأنها بذلك تثأر لنفسها) ، ومهارة غريبة في حزر رغبته كي تسبقه الى انجازها ، وحذق في تضليله وخدعه اذا كان قاسياً (أو على الاقل في اخفاء عواطفها اذا اضطرت الى ذلك) — تلك بعض الصفات التي نمت في خلق المرأة لانها كانت لازمة لها حتى تعيش مع الرجل وتحوز رضاه

وكيف نتوقع من المرأة المنزوية في دارها أن تكون لها نفس القدرة العقلية التي نالها الرجل من جراء احتكاكه بالعالم واهتمامه بالمسائل الخطيرة العمومية والخصوصية ؟ فانها ما برحت تعامل اما بالازدراء أو بالتمليق ، وكلاهما مضر على السواء . وقد نجم عن ذلك انها عاشت في عزلة وجهل ، او اكتفت بانماء مواهب سطحية تبهر اكثر مما تفيد . والرجال غالباً يكرهون النساء العالمات صاحبات الخلق القوي والعقل الراجح

بل كيف لا تكون المرأة نعجة طيّعة عادمة الاستقلال والذاتية المعنوية مع ما تحملته من ضغط الرأي العام اجيالاً طويلة ـ ذلك الرأي الجائر الذي يبيح للرجل كل شيء ويأبى الا أن يؤاخذها بادنى هفوة ، ذلك الرأي الذي يصفق للغاوي ولا يلوم الا الضحية ؟ وهل ما يدعو الى الدهشة من تطرفها في الشر كلما جاوزت حدود اللياقة ، ما زال رادعها الوحيد « ما يقوله عنها الناس » لا عقلها وشرفها وكرامتها ؟

لنكتف الآن بهذه الاشارة . ولعل لنا في ذلك ما يجعلنا اقرب الى الانصاف بازاء المرأة فنستطيع أن نلتمس لها اعذاراً صحيحة ولا نكون ظالمين . بل اني — فيما يخصني — أرى المرأة بعد هذه النظرة التاريخية اجدر بالاجلال والاكرام . فلو خبر الرجال مثلما خبرته النساء من الحيف والجور ما استطاعوا أن يخلصوا بانفسهم على افضل من تلك الصورة ! ولله در غريم القائل : « لو فكرنا في كل ذلك بانصاف ما قلنا شراً عن المرأة بل ملنا الى الاعتقاد بان فطرتها تسمو على فطرة الرجل »

وعلى كل حال لا بد لنا من التسليم بان في المرأة قوى كامنة تؤهلها لتحسين حالها متى أتيح لها ذلك . وليس من العدل ان نشدد الحكم عليها بعد ما نالها من الظلم والاهمال على ممر الاجيال

الفصل الثالث

حالة المرأة الجسمانية ووظيفتها الحيوية

وما لذلك من الشأن في حياتها الاجتماعية

قد وصفنا بايجاز حالة المرأة في العصور السالفة وما كان لذلك من التأثير الشديد في خلقها . الا ان هـذا التأثير مع شدته قابل للتعديل لان ما يحدثه الزمن قد يمحوه الزمن أيضاً

الفرق الاساسي بين الجنسين

على ان تلك الحالة نفسها ـ أي حالة المرأة في الماضي وما كان من خضوعها للرجل وتخلفها عنه في الرقي ـ كل ذلك انما تأتى عن طبيعة المرأة ، أي عن تكوينها الجسماني ووظيفتها الحيوية . وقد ذكرنا سالفاً قول مودسلي ان انوثة المرأة أشد تأثيراً من تربيتها في نفسها وحياتها . فتلك الانوثة ـ أي كون المرأة امرأة ـ هي العامل الأصلي الاساسي الذي ينبغي لنا درسه الآن

فلا ريب في ان أنوثة المرأة تلجئها الى الخضوع للرجل لما يترتب عليها من الاحوال التي تضطرها الى الاستعانة به والاعتماد عليه ـ مع انها بذلك تؤدي أسمى الوظائف الاجتماعية

وليس ذا شأن في بحثنا أن نقف على طبائع الحيوانات للمقارنة بينها وبين الانسان . واني ارى من العبث ما تبذله بعض النساء المستنيرات من الجهد لاثبات مساواة الانثى بالذكر في عالم الحيوان بل اثبات تفوقها عليه في بعض الانواع ولا سيما الخيل والكلاب . فمثل هذا البحث لا يجدي نفعاً ، وخصوصاً فيما يتعلق بالحيوانات الداجنة التي لم ترب تربية طبيعية . بل أن تخلف الانثى غالب بين الحيوانات الوحشية . وعلى فرض اننا اثبتنا تفوق الانثى بينها فذلك لا يحتم تفوق المرأة في الجنس البشري . فانها تمتاز عن سائر الانثيات بثقل العبء الذي فرضته الطبيعة عليها . فطفلها بلا ريب اضعف من اطفال جميع الحيوانات واحوج منها الى عناية أمه ورعايتها المستديمة

الفروق التشريحية

أما ما بين الرجل والمرأة من الفروق التشريحية فلم يتفق العلماء بشأنه بعد. فمعظم الفروق المثبتة لا يترتب عليها حكم ذو شأن في حين أن الفروق المشكوك في صحتها يترتب عليها احكام خطيرة لو اثبتت. وقد سلم الباحثون الحديثون للمرأة باكثر مما سلم لها المتقدمون منهم. على أنهم متفقون جميعاً في أن المرأة انقص تكويناً من الرجل واقل جلداً واضعف مقاومة. هذه هي الصفة العامة التي تنطبق على كل أجهزتها واعضائها. واليك تفصيل ذلك:

ان قامة المرأة في جميع الاجناس البشرية اقصر من قامة الرجل وذلك منذ المهد. فالذكر يولد اكبر من الانثى ومعدل الفرق بين قامة الرجل وقامة المرأة عند اكتمال نموهما نحو ١٠ سنتيمترات

ويقال مثل ذلك فيما يخص الوزن. فالفرق بين الجنسين يتجلى منذ الولادة. ومعدل تفوق الرجل من هذا القبيل ٥ كيلوغرامات. وفرق الوزن يظهر خصوصاً في الهيكل العظمي فهيكل المرأة أخف وزناً من هيكل الرجل ـ ليس على وجه الاطلاق فقط بل بالنسبة الى وزن الجسم ايضاً. ثم ان العظام ـ علاوة على كونها في المرأة اصغر حجماً وأقل متانة (حتى من حيث تركيبها الكيماوي) ـ فان انوفها التي ترتكز عليها العضلات أقل نموّاً وبروزاً. زد على ذلك أن تركيب هيكلها (نظراً لشكل الحيض على الخصوص) يجعلها اقل قدرة على الحركة والانتقال

أما عضلاتها فاضعف من عضلات الرجل. وهي دونها في الحجم بنحو الثلث كما انها دونها ايضاً في النشاط. وهو ما يجعل المرأة انحف من الرجل ويجعل حركاتها ابطأ من حركاته واقل ضبطاً ولباقة. وانما تفضل المرأة الرجل في نسيج واحد وهو النسيج الخلوي الذي تقف عليه استدارة شكلها ورشاقة جسمها. ومن الوهم الاعتقاد بان قدم المرأة التي يتغنى بجمالها اهل هذه المدنية ارقى من قدم الرجل. بل ان الحقيقة عكس ذلك لان قدمها بوجه الاجمال اكثر تسطحاً واقل التواء، وبعبارة اخرى انها اشبه بقدم الشعوب المنحطة

واذا انتقلنا الى الاحشاء وجدنا قلب المرأة اصغر حجماً من قلب الرجل واخف وزناً (٢٤٠ غراماً للمرأة و٣٠٠ للرجل)، وهو ما يدل على ان حجم هذا العضو ليس بنسبة

ما يسعه من العواطف ! » كما قال احدهم . إما النبضات فانها اسرع في المرأة ويزيد عددها فيها عن عدد نبضات الرجل بما يتراوح بين ١٠ نبضات و ١٤ نبضة في الدقيقة (والحال كذلك ايضاً عند معظم الحيوانات : فنبضات الاسد ٦٠ واللبوءة ٦٨ ، والثور ٤٦ والعجلة ٦٦ ، والكبش ٦٣ والشاة ٨٠) . أما دم المرأة فيختلف عن دم الرجل في قدره اولاً فانه أقل منه قدراً ، كما يختلف عنه في التركيب ايضاً فالاملاح فيه انقص وكذلك الهيموغلوبين . ثم ان كريات الدم الحمراء اوفر في المرأة بعكس كريات الدم البيضاء فانها اوفر في الرجل

ولننتقل الآن الى الجهاز التنفسي : ان المرأة متخلفة عن الرجل في سعة الصدر والرئتين (الفرق بينهما نحو نصف ليتر) . ثم ان التنفس لديها أسرع ولكنه أنقص من الوجهة الكماوية فالرجل اكثر امتصاصاً للاكسيجين واطلاقاً للحمض الكربوني . ولذلك تجد المرأة دون الرجل في درجة الحرارة . ولعلها كذلك لانها أقل منه استنفاداً لها بسبب غلافها الدهني الذي يحفظ الحرارة من الافلات والضياع . أما جهازها الهضمي فاقل احتياجاً للطعام وان يكن احساس الجوع عندها اكثر تواتراً

وما عسانا ان نقول الآن عن الرأس والدماغ ؟ لا ريب في ان جمجمة المرأة أصغر حجماً من جمجمة الرجل . وذلك الفرق يزيد كلما ارتقى الانسان في سلم الحضارة . فرأس الرجل ينمو مع تقدم المدنية في حين ان رأس المرأة لا يكاد يتأثر من ذلك . قال غوستاف لوبون : « قلما يزيد حجم الجمجمة في نسائنا المتحضرات عن حجمها في نساء العصور السابقة للدور التاريخي » . ونسبة جمجمة المرأة الى جمجمة الرجل في الحجم كنسبة ٨٥ الى ١٠٠ . ويتبع حجم الجمجمة عادة حجم المخ فانه أصغر في المرأة وأخف وزناً (يتراوح وزن الجمجمة بين ١١٠٠ و ١٣٠٠ غرام في المرأة وبين ١٢٠٠ و ١٤٠٠ في الرجل) . على انه ينبغي اعتبار الوزن النسبي أي وزن المخ بالنسبة الى الجسم كله لا وزنه على الاطلاق . فبهذا الاعتبار قد اختلف حكم الباحثين الا ان الرأي الغالب بينهم هو ان المرأة دون الرجل في هذا الباب أيضاً اذ ان مخها يعادل $\frac{1}{44}$ من وزنها في حين ان مخه لا يزيد على $\frac{1}{40}$ من وزنه . وهناك فرق كذلك في شكل المخ وتلافيفه (ولا يخفى ان تلافيف الدماغ هي مراكز القوى العقلية) فتلافيف المرأة على ما يقولون أضعف نمواً وأقل بروزاً

تلك هي الآراء الغالبة بين العلماء وليس هذا مقام مناقشتهم في صحتها . بل ان هذه النتائج متوقعة على الاجمال ولا داعي لاستهجانها . فان ضعف التركيب الجسماني في المرأة وتخلفها عن الرجل في الوزن ووفرة الدم وحركة التنفس بل في نمو الدماغ أيضاً ـ كل ذلك ليس على الارجح الا نتيجة معيشتها في القرون السالفة وما تحملته من الضغط وما نالها من الحيف والانزواء . فهل من العجب ان تتخلف المرأة في القدرة على الكد والعمل في حين ان قواها ما برحت هامدة ساكنة منذ أجيال بعيدة ؟ فبالاهمال تضمر الاعضاء وتنقص في الحجم والوزن والنشاط . تلك سنة راهنة تسري على عالم الحياة بأسره . ولعلها كافية لتعليل الفروق المتقدم ذكرها . ولذلك يجب عد هذه الفروق « ثانوية » : فانها ثانوية في الاهمية كما انها ثانوية أيضاً في كونها ناشئة عن فرق أولي عظيم الشأن

وظيفة الامومة واخطارها

وانا ذاكرون الآن كلمة عن ذلك الفرق الاساسي الذي هو مرجع سائر الفروق بين الجنسين . وهو يتجلى في قولنا ان المرأة انما هي . . . المرأة — أي انها مكونة تكويناً خاصاً لتأدية وظيفة الامومة التي هي كنه حياتها . فمن صفاتها التشريحية والفسيولوجية والنفسانية القائمة على هذه الوظيفة أو المرتبطة بها تتكون طبيعتها الخاصة التي تميزها عن الرجل . تلك هي الحقيقة الاساسية التي تسهل علينا مهمة درس هذا الموضوع من أوله الى آخره . فان تخلف المرأة قائم على ذلك ، كما يقوم عليه أيضاً ما لها من مجد ومفخرة . اذ كيف لا نذكر بوقار تلك التي أتيح لها ان تكون أماً ؟ وكيف نشك في وجوب مساواتها بالرجل ؟ بل أي شيء من الوجهة الاجتماعية أهم من بقاء العائلة والامة والجنس ؟

على ان تلك الامومة هي بلا ريب عبء ثقيل على المرأة يعوق جهادها في هذه الدنيا . فلا غنى لها اذاً عن مساعدة الرجل وحمايته . ولكن بعض النساء يبالغن في متاعب الحمل والامومة معتمدات على ذلك في حض الرجل على الالتفات اليهن والعناية بأمرهن . فاولئك ينبغي تنبيههن الى ان تلك الوظيفة طبيعية اعتيادية وانها تؤدى على أهون الصور متى كانت المرأة صحيحة وبيئتها سليمة . ولا ريب في ان المغالاة ظاهرة

في وصف ميشله للمرأة بانها مريضة منذ سن البلوغ ، وفي عد الدكتور سيكاد لضروب الاختلال العقلي والجسدي كأنها ملازمة بطبيعتها لصفة الانوثة . على انه يجوز التسليم مع هذا الاخير في قوله ان حالة المرأة العقلية عند اختلال وظيفتها الحيوية تتراوح « من الاضطراب البسيط الى درجة الجنون ، مما يدعو الى تخفيف مسؤوليتها بل الى أخلائها من المسؤولية في بعض الاحيان »

ان في حياة المرأة ـ وعلى الخصوص في العارض الابتدائي (بين سن ١٢ و ١٤) وفي العارض النهائي (حوالي سن ٤٥) ـ سلسلة اخطار تجعلها عرضة للعطب والضعف . على اننا نكرر قولنا ان تلك العوارض ـ التي ضخمتها الحياة الوخيمة في المدن الكبيرة ـ تنقضي بسهولة في الحياة الصحية المنتظمة وفي الاحوال الملائمة من الوجهتين الجسدية والعقلية . وكثيراً ما تبدي المرأة على تفاوت سنها من النشاط والصبر والجلد ما يستدعي الدهشة والاستهجان . ثم انها متى جاوزت دور الاخطار الخاصة بجنسها تجاري الرجل في الصحة والتعمير . على ان ذلك لا ينافي قولنا أن المرأة في اجمل دور من حياتها ـ حتى اقوى النساء وارزنهن عقلاً وجسداً ـ عرضة لمشاق وشدائد تتفاوت في الخطورة . فقد كتب لها أن تعرف ايام تعب وضعف تتكرر في اوقات معلومة وان تكون شديدة التأثر والانفعال من اتفه الاسباب كثيرة التعرض للغم والكرب والتخوف والوجس

ذلك هو الجعل المفروض عليها تكبده للاحتفاظ بالجنس . ومن نتائجه الراهنة تعرضها الشديد للمرض والموت في سن الشباب . فانه يؤخذ من الاحصاءات أن تفوق الفتاة في قوة مقاومتها لا تلبث أن تفقده المرأة بعد اكتمال نموها وتصبح بخلاف ذلك شديدة التعرض للطوارئ . وقد حسبت احدى الشركات التي تعنى بأمر العمال والعاملات ان المرأة ـ حتى سن ٤٥ او ٥٠ سنة ـ اكثر تعرضاً للامراض من الرجل بنحو مرة ونصف مرة ، وان وفيات النساء في هذه المدة ثلاثة اضعاف وفيات الرجال . فلله در هكسلي القائل : « ما دامت الامومة حصة المرأة فانها عبء ثقيل عليها في ذلك السباق الذي يسمى الحياة . فواجب الرجل ان يخفف عنها ذلك العبء او على الاقل ألاَّ يضيف اليه اثقالاً اخرى بمعاملته لها حتى لا يزيد الحيف الذي نالها من الطبيعة »

نتائج الانوثة من الوجهة النفسانية

قد آن لنا الآن ان نخوض المبحث الخطير الذي هو غرض هذا الفصل : فما تأثير تلك المميزات الجسمانية في صفات المرأة واخلاقها ؟

قال سبنسر : « ان الطبيعة تقف نمو المرأة باكراً كي تعدها لوظيفة الامومة ـ كأنها تتيح لها بذلك ان تخزن قوتها احتياطاً للأزمات التي تطرأ عليها . فهي تقف نموها عاجلاً ليتيسر لها تخزين ما يلزمها من الغذاء والنشاط عند تأديتها وظيفة الامومة »

يؤخذ من ذلك اولاً أن عقل الفتاه ينضج قبل نضوج عقل الفتى . هذه حقيقة لا سبيل الى انكارها فانك اذا قارنت بين فتى وفتاة حوالي الخامسة عشرة من عمرهما وجدت البون شاسعاً بينهما من حيث فهمهما وادراكها ، وعلى الخصوص في الامور الحسية الراهنة . فانها تفوقه بمراحل في امتلاك نفسها وحسن تخلصها ومعرفة ما ينبغي لها عمله في المواقف الحرجة . ومن ذا الذي لم يتح له الاعجاب بحذق الفتيات من هذا القبيل !

ولكن ذلك التفوق يعد نقصاً من وجه آخر . فما النضوج المبكر الا امتناع للنمو . فان الدماغ وسائر الاعضاء تبقى في المرأة دون ما هي في الرجل . وبعبارة أخرى انما المرأة تستتم نموها قبل الرجل لان ذلك النمو أقصر مدى واقرب غاية . هذه هي الحقيقة الاساسية التي عظمها اعداء المرأة واستندوا عليها للازدراء بها . قال شامفور : « النساء اولاد كبار جعلن للتعامل مع جنوننا لا مع عقلنا » وقال شوبنهور : « لا يبلغ عقل الرجل تمام نموه قبل الثامنة والعشرين . اما عقل المرأة فانه يكتمل نموه في الثامنة عشرة . فكأن عقلها لا يتجاوز قط تلك السن فتراها طول حياتها ولداً كبيراً » . وهاك وصف كاتب روائي لبراعة الفتيات قال : « . . . تأتي الفتيات أشياء عجيبة في اول امرهن ولكنهن يقفن فجأة . . . فلا يتقدمن خطوة بعد ذلك وليس من يدري السبب » . على اننا ندري الآن السبب الحقيقي لهذا الوقوف . فما ذلك الا لانهن يسرعن في التحول نساء . ولم تشأ الطبيعة أن يجارين الرجل في جميع مواهبه كما انها لم تمنحهن ذقوناً

على ان ذلك لا يمنعهن من تحقيق غاية الجنس البشري بطريقتهن التي جعلن لها كما يسعى الرجل للغاية نفسها من وجهته الخاصة . ومن الحماقة عد ما تقدم دليلاً على ان المرأة ليست الا رجلاً ناقص النمو . على اننا ـ وان هزأنا بالمرأة لانها ولد طول حياتها ـ لا بد لنا من التسليم بانها تبقى مع ذلك أحمى من الرجل وأحر قلباً وأشد اندفاعاً وأغزر احساساً . ولعل ذلك ما يعلل قابليتها العظيمة للتأثر والانفعال وهي ميزتها البارزة فيها ـ وان أخفت ذلك متى اقتضته مصلحتها

ان حفظ النوع الذي هو غاية الطبيعة لا يتم بالوظائف والاعضاء المعدة لذلك وحدها ، بل يستدعي أيضاً وجود غرائز خاصة تعين على بلوغ تلك الغاية . فمن هذا القبيل نجد غريزة الاب دون غريزة الام نمواً وبروزاً . فمن طبيعة الرجل الحماية والاجارة بوجه عام . أما المرأة فان عطفها وكنفها وجناحها محصورة على الخصوص في عنايتها بالطفل الضعيف الذي تربطها به روابط وثيقة . أضف الى هذه الغريزة الصفات العقلية المرافقة لها كادراكها بالفطرة احساس الطفل وحزرها لحاجاته . والجملة ان سيطرة الامومة على حياة المرأة تبلغ مبلغاً عظيماً حتى لقد قيل ان المرأة كلما أحبت حباً شديداً مازج ذلك الحب شيء من عواطف الام

ولكن المرأة القادرة بازاء الطفل ضعيفة بازاء الرجل . ولا بد لها من الاحتماء تحت جناحه . وليس من العسير استكشاف سبب ذلك . ففي نزاع البقاء لم يفز من النساء الا من حزن المواهب والصفات التي من شأنها اجتذاب الرجال وحملهم على اعانتهن واجارتهن . ولذلك ما برح همّ المرأة ارضاء الرجل والعناية بما يسره ومنافسة زميلاتها في هذا المضمار . فكل هذه الصفات تعينها على البقاء وتنيلها الحظوة في عيني سيدها

ومن جهة أخرى فان صاحبات الخلق الاستقلالي الحر ـ اللواتي لم يرضخن لسلطة الرجل ولم يتحملن استبداده ـ لم ينجحن في استمالته اليهن ولم يفزن في مضمار الحياة . فكأن الطبيعة تنتخب الصفات التي من شأنها توافق الجنسين فتنمو تلك الصفات وتبرز بالتدريج في حين ان الصفات الآئلة الى خلاف ذلك تتلاشى شيئاً فشيئاً ـ وهو المراد « بالانتخاب الجنسي » الذي هو ضرب من ضروب الانتخاب الطبيعي

ثم ان المرأة ما فتئت تترقب عواطف الرجل لتستطلع ما فيه من رغبة وميل لان على

معرفة ذلك يقف فوزها ونجاحها . فمن الطبيعي اذاً ان تنمو فيها مقدرة التنبؤ برغائبه وامياله والتفطن لكل ما يسره ويرضيه . فكم توقفت سعادتها على الاستدلال من حركة أو نغمة أو اشارة على ما يجيش في قلبه من غضب أو قسوة أو عطف أو سماح ! تلك هي ميزتها العجيبة التي تبلغ في المرأة المتحضرة ـ بالتهذيب والتمرين ـ دقة فائقة الوصف

ومن الاخلاق الناشئة ايضاً عن حالة المرأة الجسمانية وضعفها الطبيعي تبجيلها للقوة واعجابها بها . على ان نوع القوة الذي تميل اليه يختلف باختلاف وسطها وتربيتها ودرجة حضارتها . ولكن مما لا ريب فيه ان تحلي الرجل بضرب من ضروب القوة الجسدية او المعنوية يبهرها ويستميلها . وليس من العدل تأنيب المرأة على ميلها هذا فقد نشأ فيها واتضح بالتدريج لانه كان شرطاً لازماً لبقائها هي واولادها . وانما يكفي أن يتحول اعجاب المرأة الراقية المتهذبة من الجهة الجسدية الى الجهة المعنوية . ولعلنا نجد في هذه الغريزة ما يعلل لنا قدرة بعض النساء على تحمل المعاملة الرديئة ، بل قد تتعلق المرأة احياناً بالرجل الذي يستبد بها ويسيئ التصرف معها وتفضله على الحامل الرخو الذي يلاطفها على الدوام ، ولا سيما اذا كانت شدة الاول ناشئة عن غيرته عليها ولين الاخر نتيجة عدم اكتراثه بها

وقد نسب هربرت سبنسر الى اعجاب المرأة بالقوة نمو شعورها الديني . فما برح هذا الشعور ـ في كل زمان ومكان ـ اظهر في المرأة منه في الرجل . على اني اميل الى الاعتقاد بأنه انما ينجم عن دقة احساسها وشدة تأثرها او قل ان شئت عن احتياجها الى الاسعاف من الوجهتين المادية والادبية وتعودها الخوف والتأمل ، في حين لا يتاح لها العمل بنفسها مباشرة . تلك كلمة وجيزة في هذا الموضوع وسنعود اليه بعد . على انها كافية لتبين لنا ان العاطفة الدينية متأصلة في قلب المرأة وليست من ثمار التربية كما يدعي البعض

ومما يترتب على غريزة الطاعة والانصياع الاصيلة في المرأة احترامها للسلطة في جميع ظواهرها وحرصها على كل ما كان قديماً مألوفاً . فالمرأة في الغالب هي حافظة التقاليد البيتية والاجتماعية . ثم انها في المسائل السياسية اكثر ميلاً من الرجل الى الحكومة الشديدة الصارمة . ولا شك في ان هذه المميزات ناشئة عن تبعيتها الطبيعية المتوارثة جيلاً عن جيل . فانها ترضخ طوعاً للسلطة العمومية وقلما تسعى في التنصل من تلك

السلطة . بل كيف تكون حرة المنزع في هذا الشأن حالة كونها لا تدرك معنى الحق الصرف والعدل المطلق ، وهي لم تنل نعمة او تجز خيراً في هذا العالم الا بفضل الرجل الذي تجتذبه وتستميله . فانما قانون الحياة في نظرها الاعتماد على الحظوة والرعاية لنيل كل مرغوب

نظرة الى المستقبل

لعلنا قد تقدمنا الآن شوطاً بعيداً في درسنا هذا . فقد رأينا الباعث الاساسي الذي جعل المرأة خاضعة للرجل وكيف تطورت اخلاقها من جراء ذلك . ففي الفصل السابق شاهدنا المرأة في حالتها الوضيعة على ممر الاجيال . وفي هذا الفصل احطنا بمنشأ ذلك الحدث الاجتماعي وادركنا سببه الطبيعي الفسيولوجي . فقد تبين لنا الآن لماذا خضعت المرأة للرجل ولماذا ايضاً يتحتم عليها ذلك الخضوع الى حدٍ محدود . والا انقلب النظام البشري رأساً على عقب . بل لو اراد البشر ذلك لكان لهم في طبيعة المرأة ، في تركيبها وخلقها ومزاجها ، ما يحول دون تنفيذ مرادهم

ان خضوع المرأة أمر مكروه متى رافقته خشونة الرجل وفظاظته ، ولكنه طبيعي متى عدله تقسيم العمل ولطفته روح العدل والانصاف . بل ليس في ذلك الخضوع اهانة أو مذلة اذا نشأ عن تفاوت ضروري للتآلف والتوافق وكان اساساً لوحدة العائلة — وهي الجرثومة البدائية في تكوين الجمعية البشرية — كما تتآلف الاعضاء وتتوافق في خدمة الجسم البشري .

فاذا اتخذت الحركة النسائية غير هذه الوجهة بدعوى طلب المساواة المطلقة بالرجل فانها انما ترمي بذلك الى ملاشاة العائلة التي هي ركن الاجتماع والتي ليس للمرأة نفسها في خارجها سعادة مستديمة

فعلينا اذاً التسليم بما دبرته الطبيعة مع تجنب مايثقل حكمها ، بل مع السعي في تعديل ذلك الحكم بقدر المستطاع — وسنرى انه لا يستهان بذلك القدر من التعديل . فمتى عرفنا الحدود التي وضعتها الطبيعة لها استطعنا ان نرسم لتربيتها خطة ترفعها وتثقفها في آن واحد وتضمن لها انماء مواهبها التي أهملت زمناً طويلاً من غير ان ينقص شيء من رونقها وجمالها . ففي الامكان رفعها الى مستوى الرجل في كرامتها وتعقلها بحيث تصبح

أجدر باحترامه من غير ان تكون أقل جدارة بحبه . هذا ما ينبغي لنا عمله متذكرين على الدوام ما في المرأة من ضعف وعيب — لا لتأنيبها وتوبيخها — بل لاصلاح امرها جهد الطاقة . فنعطيها ماينقصها من غير ان نحرمها مما لديها . وينبغي ألاَّ نخشى تقويتها . فالرجل الذي يعمل لذلك انما يعمل لفائدة العائلة والمجموع بل لفائدته هو أيضاً . وانه لمن الجهل وصغر النفس ان يرى في اعلاء شأنها حطة من شأنه ، كما انه من الخطأ والحماقة ان تتناسى هي من جهتها حكم الطبيعة عليها . فلقد جعلت لهـا حصة في الحياة ليست دون حصة الرجل جمالاً وبهاء على شرط ان تكون مختلفة عنها . فالتساوي الممكن بينهما انما يأتي من هذه الجهة . واذا طلبت مساواة أخرى فانها تحرم نفسها تلك المساواة الوحيدة الميسورة لهـا فتذهب ضحيةً طموحها الى المحال . وكأنها بذلك تقتل الحب في قلب الرجل وهي تطالبه بما تظنه عدلاً

الفصل الرابع

الفتـــاة

مقابلة بين اخلاق الجنسين قبل سن البلوغ

الغرض من هـذا الكتاب درس طبائع المرأة في اجلى مظاهرها أي في المدة المتوسطة بين نهاية الطفولة و بداية الشيخوخة ، أو بعبارة أخرى من اول سن البلوغ (حوالي ١٣ و ١٤ سنة) الى آخر عهد اليئوع (من ٤٥ الى ٥٠ سنة) . فالفرق بين الرجولة والانوثة انما يكون كاملاً قبل هـذه المدة كما انه بعد انقضائها لا يبقى منه غير التذكار .

تختلف سن البلوغ باختلاف الشعوب فانها تقع حوالي السنة العاشرة في مصر في حين انها لاتقع في اسوج قبل الثامنة عشرة . وكلما تأخرت تلك السن طال عهد الجمال والاثمار في المرأة . فبينا ذلك العهد لا يستغرق اكثر من عشرين سنة في البلاد الحارة تجد انه يبلغ اكثر من الثلاثين في الاقطار الشمالية . فمن الخطأ اذاً ان نتمنى ابكار البلوغ . بل ينبغي لنا ان نبذل جهدنا لاجتناب كل ما من شأنه تعجيله ـ وان يكن ما نستطيعه في هذا الباب يسيراً

ويجدر بنا الآن أن نقف هنيهة للتأمل في حالة الفتاة قبل سن البلوغ أي قبل ان تبرز فيها صفات المرأة التي نرمي الى درسها في هذا الكتاب . ففي ذلك فوائد جمة للمربين . أما زمن الشيخوخة ـ أي الزمن الذي تمحى فيه تلك الصفات ـ فيمكننا أن نغض النظر عنه اذ لا علاقة له بدرسنا مباشرة

الفروق الاصيلة والفروق المكتسبة

لئن كانت الفروق العقلية والمعنوية طفيفة بين الفتى والفتاة قبل سن البلوغ فانها تحرية بالدرس . ومن المستحسن في هذا المقام ان نشير الى ان كلمة « ولد » في معظم اللغات تطلق على كلا الذكر والانثى ـ كأن ليس بينهما فرق يجدر ذكره . والحقيقة ان الطبيعة قد ميزت منذ المهد عقل الرجل وقلبه من عقل المرأة وقلبها . ولا يلبث هـذا التميز ان يزداد وضوحاً كلما تقدما في السن . على ان التربيـة البيتية التي ينالها الاحداث

تضخم في الغالب ما بين الجنسين من الفروق . فاننا نعامل الغلام كأنه رجل ونكاد نعد الصبيـة امرأة . وذلك يتجلى في ملابسهم وألعابهم وسائر أمورهم فمن شأنها جميعاً تضخيم الفروق التي أقامتها الطبيعة بين الصبي والصبية أو اضافة فروق جديدة اليها . حتى لقد أصبح من الصعب فصل المميزات الاصيلة الطبيعية من المميزات الطارئة المختلقة . فاننا ندفع الصبي منذ السنة الخامسة من عمره الى جهة الرجولة كما اننا نستحث في الصبية صفات الانوثة قبل أوانها . واذا قارنا بين ألعابه وألعابها اتضح لنا ذلك بأجلى بيان فاننا نضع بين يديه الطبول والزمور والبنادق والسيوف والمدافع والعساكر والمراكب الخ . . . في حين اننا لا نعطيها الا الدُّمى (العرائس) والافرشة وادوات الطبخ ولوازم الخياطة والخزائن والمرايا والاشرطة والحلي ونحو ذلك

على انه ليس من الجوهري في نظرنا الفصل بين صفات الصبية الاصيلة فيها وصفاتها المكتسبة ، ولا سيما ان المكتسب من الصفات متى كان متوارثاً على أجيال متتالية يصبح بمقام الاصيل . وانما يهمنا في هذا المقام درسها كما هي اليوم . ولنتذكر في أثناء درسنا هذا : أولاً ان جانباً من أخلاقها مكتسب أو مُضخم بتأثير التربية . وثانياً ان ليس بين الاخلاق التي سنأتي على ذكرها خلق ليس في الصبيـان ـ ولو بصورة ضئيلة ـ وانما الفرق في درجة بروزه

الحركة

ان الفتيات اجمالاً شديدات الشبه بالفتيان في أدوار معلومة من حياتهن فتراهن يشاركنهم في ألعابهم أو يتمنين تلك المشاركة متى حرمنها . قالت مدام غيزو : « لست أعرف صبية ـ لو أتيح لها اتباع رغبتها ـ لا تفضل ألعاب الصبيان الفظة الخشنة على ضروب التسلية اللطيفة المألوفة لديها . . » وما ذلك الا لأن التعطش الى الحركة فطري في الجنسين على السواء . ومن جهة اخرى فلما تجد غلاماً لا يحب اللعب بدُمية أختـه وأوانيها البيتية لان غريزة المؤانسة ـ كغريزة الحركة ـ أصيلة في كليهما . ومع ذلك فالعاب الفتيان بوجه الاجمال غير العاب الفتيات

واذا درسنا حركات الفريقين وجدناها تختلف في النوع ان لم تختلف في القدر . فحركات الفتيان أرحب وأوفى ولكنها ليست اكثر عدداً . ثم ان الفتيان أميل الى ضروب

الحركة المتسعة المجال كالمشي والجري والقفز، في حين ان الفتيات اميل الى الحركة المحدودة المحصورة كالحركات التمثيلية وتلك التي تعبر عن مرامي الشعور. وعلى الاجمال فالغلمان يحبون العراك والالعاب الخشنة وسائر مظاهر القوة كما انهم يحبون السيطرة والتأمر. حدثني صديق لي قال: «في احدى حدائق ستراسبورغ قفص كبير يحوي حيوانات مختلفة. فكانت الفتيات اذا اقتربت من القفص نادت الحيوانات بصوت رقيق ثم رمتها بقطع من الخبز. أما الغلمان فكانوا يخشنون معاملتها ويرمونها بالحجارة» وقد شاهد الصديق المذكور هذا المشهد نفسه نحو عشرين مرة فعدَّه رمزاً عن الفرق الفطري بين مزاج الجنسين.

الكلام

تتكلم الفتيات عادة قبل تكلم الفتيان. وأزيد على ذلك انهن في الغالب يتكلمن اكثر منهم — وان تكن الثرثرة من صفات الطفولة في كلا الجنسين، اذ تتحول الحاجة الفطرية للحركة والعمل في الاطفال الى تلك الصورة فترى الطفل يتلفظ بكلمات وعبارات لا بداية لها ولا نهاية — كأنه يتكلم لمجرد التلذذ باستماع كلامه. ولكن تلك الثرثرة المستديمة — وان شئت فقل ذلك التزيف اللفظي — اظهر في الاناث مما في الذكور. على انه ليس من غرضنا أن نؤيد بذلك ما تتهم به المرأة احياناً من كثرة الكلام مع قلة الحرص على المعنى

التقليد

الفتيات اكثر تقليداً من الفتيان — وان تكن غريزة التقليد واضحة في الفريقين. ويظهر كذلك انهن اجود ملاحظةً وأشد انتباهاً لما يجري امامهن وان لهن لذة عظيمة في اعادته وتمثيله. وهن يبرعن في ذلك براعة فائقة. ولكنهن اضعف ابتكاراً من الفتيان واقل استنباطاً. وليس اعجب من مراقبة فتية تعيد لدميتها العبارات التي سمعتها من أمها بنغماتها وحركاتها

واذا ثبتت لدينا هذه الخاصة وجدنا انها تسهل علينا تعليل أمور كثيرة في خلق المرأة. فالتقليد قرين المرونة واللين والطواعية والقدرة على التكيف وفقاً لتكيف البيئة. ومن ثم ندرك موهبة الفتاة التي تمكنها من تمثيل كل اشارة وبراعتها في كل ما لا

يستدعي الابتكار ، كما اننا ندرك أيضاً استعداد المرأة لتطبيق نفسها على الاحوال التي تطرأ عليها واستعاضتها بفضل ذلك الاستعداد مما قد ينقصها من التعليم والتهذيب متى ارتفعت فجأة الى مرتبة أعلى من مرتبتها الاولى

على ان التقليد من الجهة الاخرى يؤدي بها الى الانقياد للرأي العام والخضوع للعادات الموروثة والتقاليد المألوفة ، ومنه يتأتى أيضاً الانصياع الاعمى للمودة وضياع الذاتية وافتقاد قوة الابتداع والاختراع

ثم أنه يجوز لنا أن نقرن بهذه الموهبة ـ موهبة التقليد ـ اكثار الفتيات على الخصوص من الاشارات والحركات . وقد نبغ منهن في فن التمثيل غير واحدة ممن لم يجزن دور الطفولة ، أي منذ السنة السادسة بل قبلها . ومعظم نوابغ التمثيل الحديثي السن من الفتيات . ويجدر بنا مراقبة الفتيات من هذا القبيل في معيشتنا العائلية حتى لا يغالين في التمثيل ويعتمدن عليه في بلوغ مآربهن . ثم انك تجد الفتيات أشد حذقاً من الفتيان وأدق تمييزاً في ادراك مرامي الغير واستطلاع افكارهم واحساساتهم ـ ولا سيما متى كان لهن مصلحة في ذلك. وسنرى ان هذه الموهبة ـ التي وجدنا جرثومتها في الفتاة ـ انما هي من اخلاق المرأة التي اكتسبتها مع مرور الزمن لانها اعانتها على البقاء في نزاع الحياة

الاحساس

الفتاة على الاجمال ادق احساساً من الفتى واشد انعطافاً . انظر اليها كيف تحضن دميتها وكيف ترعاها بلهفة وحنان تظهر لك تلك الميزة واضحة . وما ذلك منها الا سبق ظهور لغريزة الامومة ـ وهي الغريزة التي تسمو في المرأة على كل غريزة أخرى . ولله در ميشله القائل : « المرأة أم منذ المهد بل انها تتعشق الامومة حتى لقد تعد بمنزلة الاولاد كل ما يوكل اليها امره ـ حيًّا كان او غير حي » . راقب الفتاة الصغيرة وما تبديه من العطف والرعاية متى سلم اليها أمر اخوتها واخواتها الصغار وكيف تسعى جهدها في ملاحظتهم وارضائهم بل في تعليمهم وتدريبهم ايضاً ـ فانما كل ذلك دليلٌ جلي على ان المرأة خلقت لتكون اماً ومربيةً في المقام الاول

ان الفتاة بوجه عام اقرب من الفتى الى التأثر والانفعال والاضطراب . ولئن خاف

الاولاد عموماً من الفيران والحشرات فان ذلك الخوف أشد في نفوس الفتيات واوقع . كذلك ترى في معظم الاولاد استعداداً للبكاء لاتفه الاسباب ولـكن دموع الفتيات أغزر واسهل ذرفاً . قال احدهم : « ان البكاء من مميزات المرأة في كل ادوار حياتها فبه تنال ما تبتغيه وتأتي العجائب والمعجزات » . أما تعليل ذلك فيرجع بعضه الى أن الانفعال النفسي في الفتى لا يلبث أن يُستظهر بنوع من انواع الحركة فيضيع تأثيره على هذه الصورة ، في حين أن الفتاة ـ لـكونها أقل حركة ـ تكظم الانفعال وتكتم التأثر

ومهما يكن الامر فلا جدال في هـذه الحقيقة . قال مسيو دوبانلو : « بعض الفتيات مولعات بالبكاء حتى لقد عرفت منهن من كن يبكين امام مرآة لمضاعفة اللذة المتأتية لهن من البكاء »

الاميال

أما فيما يخص الاميال الغريزية فقد نسب الـكاتب المتقدم محبـة الذات الى الفتيات على العموم . على ان اختباري الشخصي يحملني على الاعتقاد بان الفتيان ليسوا دون الفتيات في هذا الشأن بل اكاد اقول أنهم يفوقونهن فيه . ولـكن مظاهر تلك العاطفة تختلف في الفريقين ، كما تختلف فيهما ايضـاً مظاهر الغضب والغيرة والنهم والاختيال وغير ذلك من العواطف . فالفتيات مثلاً اشد حرصاً على ازهد الاشياء وأقلها قيمة في حين ان الفتيان اكرم منهن واسمح نفساً . ومن جهة أخرى تجد الفتيان اكثر تصلفاً وتحدثاً بمآثرهم بينما تجد الفتيات أشد عجباً واحذق في جذب الانظار . على انه يجب لوم بعض الوالدات على انمـاء تلك الصفات في بناتهن بالمغالاة في تزيينهن وتحليتهن والعناية بهندامهن ، مع ان الفتاة على الغالب في غنى عمن يحثها على ذلك اذ ترى جل اهتمامها محصوراً في حسن الظهور مهما تبذل في هذا السبيل ، حتى لقد تستنزل بها التوبيخ ولا تصبر على عدم الاكتراث لها ، بل قد تلجأ الى البكاء كي تجد من يعنى بها و يلتفت اليها . فمن ذا الذي لم يلاحظ الفتيات وهن يلعبن كيف يترقبن من حولهن و يستطلعن آراءهم فيهن بنظراتهن الخفية . على أن الفتيان ايضاً لا يألون جهداً في استعطاف القلوب وبهر العيون والظهور بمظهر الرجال ، ولـكن الفتيات اشد اهتماماً بانفسهن من هذا القبيل بل يكدن وهن يلعبن يوجهن نصف حركاتهن واقوالهن الى من حولهن

والحاقاً برغبة الفتاة في التأثير يجدر بنا أن نذكر خجلها الذي يزداد بروزاً بعد سن البلوغ فيعوق سلاسة افكارها وتعابيرها ويعرقل ما فطرت عليه من الحذق والبراعة . فلها لاتلبث أن تتنبه الى كل حركة من حركاتها وتترقب ما تحدثه من التأثير في النفوس وذلك مما يقف في سبيل مهارتها الطبيعية

ثم انها من ذلك الحين تتصنع في حركاتها وملامحها واشاراتها على قدر رغبتها في جذب الانظار . حدث منسيور دوپانلو قال : « كانت فتاة تتنزه في حديقة مع والدتها فاستوقفتها فجأة وقالت : — لنعد يا أماه من هـذا الطريق ! — ولماذا يا بنيتي — لان فيه سيدة قالت اني جميلة ! » على اننا لو فرضنا ان تلك السيدة التي حازت عناية الفتاة وعطفهـا جاءت يوماً لزيارة والدتها فالارجح ان الفتاة تتهرب من مقابلتها خجلاً وحياء

ويتبع ذلك ايضاً كره الفتاة للاستهزاء — لا لاستهزائها بالغير بل لاستهزاء الغير بها — فقد تبيح لنفسها الاستخفاف بمن حولها ولا تطيق اي علامة يؤخذ منها استخفافهم بشأنها ، بل انها تعد ادنى عبارة او حركة في هذا المعنى اهانة عظيمة لها

ومن اظهر الصفات في الفتيات المنافسة — وعلى الخصوص المنافسة في اجتلاب الرضى وحوز الاعجاب — ولا سيما ان والدتهن في الغالب يدفعنهنَّ في هذا المضمار . على أن ذلك الميل لا يبرر وصفهن على العموم بالغيرة والحسد — وان تكن المنافسة في امزجة مخصوصة واحوال معينة كثيراً ماتتحول الى احدى هاتين الرذيلتين . على ان منسيور دو پانلو قد ذكر ان اختباره الطويل في تعليم الاحداث حمله على الاعتقاد بانهما على الاجمال أشد في البنات واقوى

واتفق الملاحظون ايضاً على ان الفتيات أقل استقامة من الفتيان وأقرب حيلة واوفر معاذير وأمهر في السياسة وحسن التخلص وأقدر على التلفيق والاختراع وأميل الى الاغراق والمبالغة — وقد يلجأن الى ذلك عن اضطرار او بلا اضطرار لمجرد التلذذ وحب الفن ! وهن أمهر من الصبيان على الخصوص متى تعمدن الكذب فتجدهن أحضر ذهناً واقل اضطراباً

ولكن هـذا البحث يدخل في باب الادراك والارادة اكثر من دخوله في باب الاحساس فلنذكر كلمة عن ذلك

الارادة

لا تتجلى الارادة في أرقى مظاهرها الا بعد سن معلومة . فكلٌّ من الصبي والصبية يظل زمناً طويلاً والخوف مستول عليه لا يملك ارادته ولا يسيطر على نفسه . ومع ذلك يجوز القول بان ارادة الفتاة أضعف وأقصر مدىً . فهي في الغالب سلبية دفاعية ، واكثر ما تتجلى في العناد وصلابة الرأي

ولعل الفتاة تفوق الفتى في التقلب والتنقل متى أتيح لها العمل وفقاً لرغائبها المتلونة على الدوام . فانها ميالة بفطرتها الى التعلق بكل رغبة تخطر لها والسعي اليها بكل قوتها

الذكاء

على انه لا ريب في ان الفتاة تسمو على الفتى في ميدان الذكاء . فان ألد أعداء المرأة والقائلين بتخلفها عن الرجل في جميع الميادين لم يسعهم الا التسليم بان ما بين الجنسين من الفروق العقلية انما يظهر بعد سن الشباب وان الفتيات قبل تلك السن اكثر فطنة وأقوى ذاكرة وأقرب الى الفهم والحفظ . على اني — في اختباري الشخصي — قد وجدت ذكاءهن سطحياً ووجدت انهن أقل من الفتيان ميلاً الى المطالعة ودونهم تفكيراً وابتداعاً . ولكن هناك شواذَّ لهذا الحكم . ومن أغرب هذه الشواذ قصة فتاة أظهرت بين الثامنة والتاسعة من عمرها قوة عقلية فائقة وميلاً عجيباً الى استطلاع المسائل النفسانية والروحانية كمبدإ الحياة ونهايتها ومشكلة الموت والابدية واللانهاية الخ .. ولئن تعذر الاعتماد على هذه الحوادث والاحتجاج بها فلا أقل من ان تبين لنا ان صفة الانوثة لم تكن حائلاً دون نمو العقل على هذه الصورة النادرة . وفي الجملة يصح القول بان ذكاء الفتاة ابكر نضجاً من ذكاء الفتى كأن الطبيعة تمنحها هذا الامتياز لتعيضها من وقوف نموها بعد ذلك

* * *

والخلاصة ان مشاهداتنا في هذا الفصل جعلتنا نستكشف في الفتاة بذور المواهب والسجايا التي استخلصناها من درس حالة المرأة التاريخية وحالتها الجسمانية . وسنرى فيما يلي ما يكون من كل ذلك عند اكتمال نموها اذ تتجلى فيها صفات الانوثة التامة

الفصل الخامس

احساس المرأة بوجه الاجمال

دور الانتقال

يحسن بنا قبل تشريح المرأة تشريحاً نفسانياً ان نذكر كلمة وجيزة عن دور انتقالها من الحداثة الى الشباب :

لا يخفى ان تلك الفترة خطيرة الشأن في حياتها . ففيها تبرز صفات انوثتها وتتجلى سجاياها الكامنة فتصبح امرأة بعد ان كانت فتاة — كما تتفتح الزهرة الناضرة بعد ان كانت برعماً ضئيلاً . وهذه السن في الغالب محفوفة بالمخاطر الشديدة . لكن الفتاة قلما تتيقظ لما يحدق بها من الخطر ولذا يجب على ذويها ان يتيقظوا لذلك بدلاً منها وان يراقبوها على الدوام في هذا الدور الحرج ليخففوا عنها وطأة الاضطراب العام الذي يستولي عليها . ولا بد لها في هذه الاثناء من ملازمة الهدوء والسكينة حتى يتم الانتقال من غير حدوث ما لا تحمد عقباه

ثم ان هذا التغيير ليس مقصوراً على الحالة الجسدية بل يتناول الحالة العقلية أيضاً . اذ تنمو مواهب المرأة فجأة ويتم تكوينها فتتخذ وجهتها النهائية — وبعبارة أخرى ان خلقها يبرز اذ ذاك ، كما ان ذكاءها ايضاً ينضج بسرعة عجيبة . والبون شاسع بين الجنسين في هذا المضمار فسرعان ما « تركز » الصبية وتصبح راشدة رزينة في حين يقضي الصبي سنين طويلة قبل ان يصير عاقلا حكيما . ثم ان أزمة البلوغ تجعل الفتاة شديدة الخجل كثيرة التأمل في نفسها وحركاتها عظيمة الميل الى الوحدة والانفراد . ولعل الاحساس أبرز المواهب في الفتاة وأسرعها نمواً فلنبدأ به درسنا في أخلاق المرأة

ثروة الاحساس

لقد أجمع دارسو أخلاق المرأة وملاحظو أطوارها — سواء في ذلك مريدوها ومبغضوها وسواء مادحوها وذاموها — على انها صاحبة الفوز في مضمار العواطف حتى ان

اوغست كونت أطلق على النساء اسم « الجنس الحساس »

والمراد من كلمة احساس في هذا المقام القابلية للتأثر والانفعال ، والاستعداد للتلذذ والتألم ، وللخوف والحب والبغض الخ . . . فتلك القابلية وهذا الاستعداد اكثر بروزاً في المرأة منهما في الرجل . بل انهما يشغلان الجانب الاعظم من حياتها

ويجدر بنا الآن ان نبدأ بتقرير هذه الصفة فنرى ما يدعمها من الادلة والبراهين ثم نستطرد الى تعليلها فتشريحها و بيان صورها المختلفة . واذ ذاك تتجلى لنا خطورة هذا الموضوع من الوجهة التهذيبية

تقاس شدة العواطف غالباً بما يبدو من آثارها في الجسم . فتحول لون الوجه ، واضطراب حركة التنفس ، واختلال الدورة الدموية ، وتغير لهجة الصوت ، وضروب الضحك والبكاء والصياح والتأشير — كل ذلك انما يعبر عما يختلج في الصدر من العواطف على اختلاف انواعها

وقد تكفي مراقبة تلك العلامات في المرأة للتثبت من شدة احساسها . فسواء كانت غاضبة أو مسرورة وسواء بكت أم ضحكت ، نفرت أم عطفت ، تكبرت أم اتضعت ، فانها على الدوام تحس بشكل من الاشكال ولا تبقى دقيقة من غير ان تحب أو تبغض أو تشغل قلبها بعاطفة من العواطف

اعتراضات لومبروزو

على ان نفراً من العلماء خالفوا الرأي العام في هذا الشأن وفي مقدمتهم لومبروزو العالم الاجتماعي الشهير . فقد وصف المرأة بقلة الاحساس ولا سيما فيما يتعلق بالحواس[1] فجاء بالتجارب والمشاهدات التي اثبتت ان حاستي الذوق والشم في المرأة (وعلى الخصوص حاسة الشم) أخشن منهما في الرجل ، وقدر ان خشونتهما فيها تتراوح بين ضعفي وخمسة اضعاف خشونتهما فيه . وقد نسب الى خشونة حاسة الشم في المرأة اكثارها من استعمال العطور لتتأثر من رائحتها . ثم ذكر شهادة الجراحين عموماً بما تظهره المرأة من الجلد اثناء العمليات حتى ان احدهم نصح بتجريب العمليات الجديدة في النساء اولاً

(١) الاحساس كما لايخفى حسي أو ذهني . فالاول يتأتى عن طريق الحواس الخمس والثاني يحدث في الذهن مباشرة من غير مداخلة الحواس

لانهن اقل احساساً من الرجال واكثر مقاومة للألم . وذلك يؤيد ما قاله بلزاك من « ان المرأة تخشى الآلام قبل حدوثها ولكنها متى وقعت تحملتها بجلد لا يعرفه الرجل » .ومما يستحق الذكر في هذا المقام ان المرأة اقدر على الاحتفاظ بالهدوء والسكينة بجانب المرضى

على اني اعلل كل ذلك بقدرتها على التكيف وفقاً لمقتضيات الحال و بسلطانها على نفسها وعواطفها . أما لومبروزو ومن ذهب مذهبه من العلماء فيرون في ذلك مناعة ضد الآلام الجسدية تمتاز بها المرأة على الرجل لان الطبيعة قد خصتها بقدر من الآلام يفوق القدر الذي خصته به . واذا اعترضنا على هذا القول بان المرأة حين تنفعل تبدو عليها علامات الانفعال أشد مما تبدو على الرجل اجابوا : « لا يدل ذلك على شدة الاحساس وانما يدل على سرعة الهيجان » كما قال لومبروزو . ثم انهم ينسبون بعض ما يبدو على المرأة من دلائل التأثر والانفعال الى مقدرتها العجيبة على التمثيل بحركاتها والتلاعب بملامحها وعلى الخصوص الى ما لبعض النساء من القدرة على البكاء متى شئن ذلك . وليس من غرضنا ان ننكر هذه الموهبة في المرأة فقد ذكرناها بين الصفات التي تميز الفتاة في حداثتها . وانما نرى مغالاة في الاعتماد على هذا القول لتعليل كل ما تبديه المرأة من العلامات المعبرة عن مرامي الشعور . ولا ريب ان التعليل المعقول لذلك انما هو شدة قابليتها للتأثر والانفعال . فانما الانفعال الجسماني ترجمان الانفعال النفساني

الاستشهاد بعلم الخطوط

وجملة القول اننا لا نتردد في التسليم للمرأة بتفوقها في مضمار العواطف فابرز خلق فيها انما هو دقة الشعور وشدة الاحساس . ومن الادلة على ذلك ما جاء في كتب « علم الخطوط » من أنه يستدل من خط المرأة على انها أشد احساساً من الرجل . وقد قابل أحد المعنيين بهذا الموضوع ٣٠٠٠ رسالة من خط النساء بهذا القدر من خط الرجال فوجد الاحساس ـ على ما انبأ فحص الخط ـ ضعيفاً في ٦٠ امرأة أي نحو ٢ في المئة ومعتدلاً في ٥٣٧ أي ١٧٫٩ في المئة وشديداً في ٢٢٠٨ أي ٧٣٫٦ في المئة ووجده اقرب الى حالة المرض في ٦٫٥ في المئة

أما الرجال فقد وجد ١٤٢ منهم باحساس ضعيف (أي ٨ في المئة) و١١٨٠ باحساس معتدل (أي ٦٦ في المئة) و٧٢٤ باحساس شديد (أي ٢٤ في المئة)

زعزعة العواطف في قلب المرأة

ويسهل علينا الآن أن نفهم وصف أحدهم لصديقة له اذ سئل عما تعمله وما تفكر به فقال: « انها لم تفكر قط في حياتها وانما هي تحس على الدوام » . وهذا القول ينطبق الى حد محدود على النساء اجمالا . فالاحساس يملأ قلوبهن — حتى متى فكرن فانما يكون ذلك بتأثير عاطفة من العواطف

على ان الرجل ينفعل أيضاً ولكن انفعاله بطيء في الغالب ولا يقوى الا شيئاً فشيئاً بعكس انفعال المرأة فانه فجائي في معظم الاحيان . واذا راجعنا كتب الاخلاقيين في هذا الشأن وجدناها مفعمة ببيان هذا الخلق وشأنه في حياة المرأة . قال فنلون : « من الصفات الكثيرة الانتشار بين الفتيات سرعة الانفعال لاتفه الاسباب . فاذا رأين شخصين متخاصمين لايلبثن ان ينحزن الى أحدهما — ولو في سرهما . فتراهن على الدوام ممتلئات حباً أو كرهاً على غير أساس : فان أحببن لم يرين عيباً فيمن يحببن وان كرهن لم يرين فضيلة فيمن يكرهن »

ولذا فقد وصف فنلون المرأة بكونها « متطرفة في كل شيء » فانها تتطرف في الخير كما تتطرف في الشر ، وفي الحب كما في البغض . وقد ذكر غير واحد من المؤرخين انه كلما حدثت اضطرابات عمومية كانت النساء في مقدمة الثائرين جرأة وحماسة واندفاعاً . ومن ذا الذي لم يشاهد تحول المرأة من الحب المبرح الى الكره الشديد ؟ فقلما تستقر عواطفها على متوسط الامور والاحوال حتى متى ظهرت بمظهر الرزانة والتعقل . بل انها في الغالب تستلذ انفعالاتها وان يكن الانفعال ناشئاً عن الخوف . قال أحد الروائيين العصريين : « لبعض النساء ولع بالانفعال حتى لقد يفضلن وقوع المصيبة على الحالة الساكنة المألوفة » وفي ظني ان النساء اجمالا يحببن التمثيل ويفضلن في التمثيل المشاهد المحزنة المؤثرة فقلما تجد امرأة تشكو من كثرة ذلك . ولقد عرفت رجالاً كثيرين لم يطيقوا مشاهدة صراع الثيران في اسبانيا في حين انني لم أرَ امرأة او فتاة لم تعلق به . بل لقد رأيت بعيني ألطفهن شعوراً وأرقهن احساساً والحفهن مزاجاً يتتبعن بلهفة تقلبات ذلك الصراع الفظيع — وان لم يتمالكن بين حين وآخر من تغطية وجوههن بايديهن او مراوحهن لهول ما يشاهدنه . وليس ادل على كلفهن بهذه المشاهد

مع شدة تأثيرها فيهن من هذا القول الذي قالته لي سيدة اثر حفلة من ذلك النوع « انها لمشاهد فظيعة يا سيدي فلقد حضرتها اكثر من اربعين مرة ومع ذلك لم أتعودها بعد . . . »

ولا حاجة بي الى ايراد الامثلة المثبتة لهذه الميزة في اخلاق المرأة . فلقد اتفق الجميع في هذا الشأن ، كما انهم اتفقوا على أن المرأة متى أمّلت شيئاً أملته بكل جوارحها . قالت مدام دي ريموزا : « انه اسهل علينا معشر النساء أن نحرم لوازمنا من أن نخيب آمالنا » اجل ان جلد المرأة عجيب متى عنينا بذلك جلدها ازاء الشدائد والملمات . ولكنها اذا أملت شيئاً املته بشدة واندفاع واذا تولدت فيها رغبة بذلت كل قواها في سبيل تحقيقها . وقلما يوقفها عند حدها ما يعترضها من العقبات بل قد يتعذر اقناعها باستحالة ما تسعى اليه . قال اكتاف فوليه : « المرأة اما ان تطمح الى ما هو خير من الخير او الى ما هو شر من الشر » فليس الاعتدال والانصاف من صفاتها

ومثل ماقلنا في رغبتها قل في خوفها . فانها اذا خافت شيئاً غالت في تخوفها . ومن الغريب في طبعها انها قد تشعر بتخوف شديد من غير أن يكون لديها باعث معين يحملها على ذلك . ولعلنا قد شعرنا جميعاً في ساعات المرض بخور فجائي يوقع الرعب فينا او بتخوف مبهم عام يستولي على نفوسنا في حين لا يكون لدينا داع لذلك . فهذه الحالة مألوفة عند المرأة فكثيراً ما تحس مثل ذلك الاحساس . ولله در الشاعر الذي قال عن المرأة : « انها خلقت للألم والخوف »

قال ديدرو : « رأيت الحب والغيرة والغضب في النساء وقد بلغت مبلغاً لم يخبره قط معشر الرجال » ثم علل ذلك بقوله : « ان حياة الرجل بما فيها من المشاغل والمشاحنات تصرفه عن اهوائه وتحول دون استسلامه لها . أما المرأة فلها من سكونها وخلو ذهنها ما يذكي أهواءها ويصرفها اليها » هذا فضلاً عن تكوينها الجسماني الذي يجعلها أشد تعرضاً للاضطراب العصبي

لا ريب في ان انزواء المرأة يذكي فيها سلطان الاهواء كأن الاهواء تختمر في الوحدة والسكون . بل انهما يؤثران هذا التأثير ذاته في خلق الرجل فانه اذا لم يستظهر امياله النفسانية ويضع مفعولها بصورة من الصور لا تلبث أن تضخم فيه بالتدريج وتصبح شغله الشاغل

وجهة الاحساس الغالبة

لننظر الآن ما هي الوجهة الرئيسية التي يتخذها احساس المرأة . فهل اتجاهها الغالب نحو الحب أو نحو البغض ؟ ان الجواب على هذا السؤال لا يحتمل الشك عندي فلا ريب في ان الحب هو محور العواطف وأساسها ولا سيما في المرأة ، بل ان الامر كذلك في الرجل ايضاً ولكن الى حد محدود . على ان المرأة لا تخلو من العواطف الاخرى كالكره والبغض والحسد والغضب الخ . . . ولكنها انما تكون تابعة للحب ومرتبطة به على صورة من الصور . ثم ان النساء وان يكن بفطرتهن ارق قلباً من الرجال فقد يتحولن الى القسوة متى حال حائل دون رغبتهن . ولكن تلك القسوة قلما تكون عامة وانما تنحصر في ما يعرقل حبهن فتتخذ صورة محسوسة كالكراهة والانتقام

ان الحب ـ بمعناه الواسع ـ وما آل اليه من الشعور مصدر فضائل المرأة جميعاً كما انه متى صُدم وأُعيق كان مصدر نقائصها ايضاً . فهو منشأ قوتها ومنشأ ضعفها . ومن المعلوم أن المرأة متى أحبت بلغت اعلى درجات التضحية مما يفوق قدرة الرجل . ولكن حبها هذا قد يفقدها رشدها ويحملها على التضحية بما لا ينبغي قط أن يضحى به ـ نعني شرفها . على أن الكاتبة الفرنسية الشهيرة المعروفة باسم جورج ساند قد خففت من زلة المرأة متى صدرت عن عاطفة شديدة بقولها : « لقد نجد بين النساء الساقطات من هن افضل من بعض الحكماء بل افضل من الذين يرمونهن بالحجارة »

الحب مرجع لذات المرأة جميعاً فلا لذة لها في شيء الا اذا ربطته بالحب علاقة من العلاقات . ولذا فالنساء على الاجمال شديدات الانكباب على مطالعة الروايات الغرامية . لانها تحدثهن عما يلذ لهن وعما يشغل قلوبهن . بل لقد يصبرن على مطالعة الكتب الفلسفية العويصة متى كان موضوعها الحب . وفيما عدا ذلك قلما يلذ لهن موضوع من المواضيع . قال احد النقادين الحديثين : « اذا طالعت المرأة رواية فانها انما تبحث فيها عن اسرار حياتها او عن اسرار حياة مناظراتها » . على انه ليس ضرورياً عندي ان يكون لها اسرار او مناظرات لتستلذ مطالعتها . بل يكفي لذلك ان تحوي الرواية بعض احاديث الحب والغرام : فتذكرها بحبها اذا كانت قد احبت أو تقوم مقامه اذا لم تحب بعد

ان حب المرأة متى بلغ اشده داخلته عناصر مختلفة فيصبح مركباً صعب التحليل .

وفي نظري انه يختلف عن حب الرجل في امر جوهري وهو انه يمازجه شيء من التخوف ، في حين ان الرجل يعجز عن تصور حب يمازجه هذا الشعور . بل ان الخوف اذا داخل قلبه لا يلبث ان يقتل الحب فيه . لان من شروط الحب في الرجل السيطرة والسيادة . اما المرأة فيندر ان تحب من غير أن يداخل حبها الجزع والقلق . قال جورج اليوت (وهو اسم مستعار لكاتبة انكليزية شهيرة) : « لا تتعلق المرأة بالرجل الذي تديره كيف تشاء » وما ذلك الا لأن المرأة تعلم انه لا يمكن الاستناد الا على ما كان صلباً متيناً . فلا غرابة اذا احتقرت من كان بين ايديها كالالعوبة

ومن المميزات المنسوبة الى حب المرأة ما دعوه « جاذبية الثمرة المحرمة » أي ان ما حرم عليها حبه يجذبها ويستميلها . على ان ذلك الطبع مشترك بين الرجل والمرأة على السواء . « فكل ممنوع مرغوب » وذلك لاسباب كثيرة : فالممنوع اولاً لم يمنع الا لانه جذاب بطبعه والا لم يكن ثمت داع لمنعه . ثم ان العقبة تذكي الرغبة وتضاعفها ـ كما يتضاعف زخم الماء حين يقام سد في مجراه . ومع ذلك فلعل المرأة اشد افتتاناً بما يحرم عليها : فقد رأينا انه يداخل حبها شيء من الخوف والقلق وذلك من شأنه ان يؤجج عاطفتها . ثم ان المرأة ـ لقلة اعمالها ومشاغلها ـ اضعف من الرجل مقاومة للفتنة والتجربة ، أو هي كما يقول علماء النفس الحديثون اشد منه تعرضاً للاستهواء . بل ان التحريم نفسه يستهويها ويجعلها تفكر على الدوام فيما حرم عليها

فائدة تهذيبية

وبناء على ذلك نستطيع منذ الآن ان نضع قاعدة أساسية للتربية وهي « الاقلال من التحريم بقدر المستطاع » ولا سيما في تربية البنات . فاننا في الواقع نحرم عليهن من الامور اكثر مما نحرم على غيرهن . وما ذلك التحريم في الغالب الا حاثاً لهن على زيادة التفكير بالمحرم والسعي اليه

ومن فوائد هذا الدرس لتربية البنات ايضاً انه يحملنا على انماء الصفات التي من شأنها تهميد اندفاعهن وتخفيف ما بهن من رقة الشعور وسرعة التأثر والانفعال ، حتى يُخضعن قلبهن لعقلهن : وليس من المحتم أن يكون العقل والقلب متناظرين متضادين . ولئن كان الاول غالباً في الرجل والثاني في المرأة فعلى التربية أن تمزج حب المرأة بالرزانة والتعقل وان تضيف الى حكمة الرجل حرارة العاطفة والشعور

الفصل السادس

احساس المرأة (تابع)

الاميال التي مرجعها الذات

اقتصرنا في الفصل السابق على درس احساس المرأة بوجه الاجمال و بيان قابليتها الشديدة للتأثر والانفعال . وعلينا الآن أن نحلل ذلك ونرى ما في قلب المرأة من الميول والغرائز والعواطف على اختلاف صورها ومظاهرها والمقابلة بينها و بين الرجل من هذا القبيل . فبالمقابلة تبرز الصفات وتتضح . وهذا هو الغرض الذي نرمي اليه في هذا الفصل وفي الفصلين التاليين

قلنا في آخر الفصل السابق ان الحب ـ وما يترتب عليه من فضيلة ورذيلة ـ يشغل الجانب الاعظم من حياة المرأة ، في حين أن الرجل يحيا بالفكر والعقل اولاً . على ان هذا الحكم تقريبي اجمالي لا يصح اعتماده في جميع الاحيان . بل اننا اذا اعتبرنا « الحب » بمعناه السامي وجردناه من مظاهر الانانية وحب الذات اخطأنا المرمى . فليس على الارض مخلوق بشريّ لا يحب ذاته وانما يتغلب الانسان احياناً ـ بالجهد والتمرين ـ على تلك العاطفة الطبيعية

حب الذات

فالميل الفطري في كل مخلوق هو أن يحب نفسه اولاً . والمرأة في ذلك نظيرة الرجل ـ وان اختلفت فيها مظاهر هذا الميل . على ان فريقاً من الكتاب قال بتفوق المرأة من هذا القبيل . قالت مدام غيزو : « لا تعنى المرأة بشيء ليس له علاقة بشخصها » . وقالت مدام نكر دي سوسور : « اذا تبينت اخلاق الشابات ولا سيما المتحضرات المترفهات وجدت همهن الاول أن يجذبن الانظار و يبهرن العيون لا أن يحببن بصدق واخلاص » ثم اضافت الى ذلك قولها : « الا ان الطبيعة تعود فتتقاضى حقها من قلب المرأة بعد مجاوزتها سناً معلومة » . واذا طالعنا الروايات الغرامية الحديثة ودرسنا اخلاق « عرائسها » لم نجد فيها قلوباً صادقة فياضة . وانما نجد بدلاً من ذلك نزوعاً الى التظاهر وسعياً لجذب الانظار ، بل نجد قلوباً لا تكاد تحب غير نفسها » فمن امثلة

ذلك وصف موباسان لعروس احدى رواياته بقوله انها : « . . . كانت تعبد نفسها عبادة » . ومنها ايضاً وصف الفونس دوده للمرأة بانها : « كالولد الطائش بكل ما فيه من خبث ورداءة وكذب وجبانة ! . . . فضلاً عن كونها نهمة فضولية معجبة بنفسها ! »

تلك بلا ريب أوصاف مغالى فيها أو ان شئت فقل انها لا تنطبق الا على بعض الشواذ . ومع ذلك تجد فيها قسطاً من الصواب . فحب الذات فطري فينا وهو محور أعمالنا في الغالب ـ سواء في ذلك معشر الرجال ومعشر النساء . وما كنا لنرى في التضحية وانكار النفس جمالاً لو لم يستلزما التغلب على ذلك الميل المتأصل في الطبيعة البشرية

فعلى ذلك نرى ان الانانية مشتركة بين الجنسين وانما الاختلاف في اتجاهها ومظهرها . فما هي وجهة الانانية في المرأة وأي الصور تتخذ ؟ هذا ما ينبغي لنا الاجابة عنه الآن

ولنبدأ بدرس مظاهرها السفلى ثم نتدرج الى مظاهرها الراقية . والمراد بالمظاهر السفلى تلك التي تغلب فيها الشهوة الجسمانية أي تلك التي تتعلق بالجسم ومطاليبه الحيوية . أما المظاهر الراقية فهي التي تصدر عن منازع النفس ورغباتها

المظاهر السفلى

يجوز لنا ان نقول بوجه الاجمال ان الانانية في أخشن صورها ـ أي حين تكون جسمانية شهوانية ـ أضعف في المرأة منها في الرجل . فحاجاتها أقل من حاجاته عدداً كما انها دونها شدة . وذلك اما طبيعي فيها أو ناشىء عن تعودها القناعة والاكتفاء واضطرارها الى كبح رغباتها ، في حين ان الرجل قلما يقاوم ما في نفسه من رغبة وشهوة لكونه صاحب القوة والسيادة . وعلى ذلك يصح اتهام الرجل في الغالب بانصياعه لمطالب فمه ومعدته وحواسه اكثر من انصياع المرأة لها . على ان البعض ينسبون الى النساء عموماً الايثار بمطالب حاستي الشم والذوق بشاهد تعشقهن للروائح العطرية ولصنوف المخلويات (من ملبس وشوكولاته ونحو ذلك) . على اني أعتقد ان هذا الميل ـ اذا سلمنا به ـ ليس أصيلاً في المرأة وانما ينشأ في بيئات مخصوصة وفي أحوال معينة . وعلى كل حال لو فرضنا اننا سلمنا بهذه الخصلة فانها أقل شناعة من ضروب حب الذات

الاخرى التي يتصف بهـا الرجل . ولا ريب في ان المرأة بطبيعتها أقنع من الرجل في طلب الاكل ـ وان يكن احساس الجوع فيهـا اكثر تواتراً كما ذكرنا ، كأنها تسلي نفسها بالقضم والاكل من حين الى آخر . وهي ايضاً أقل اقبالاً على المشروبات المهيجة ويندر ان تتعود التدخين أو تستلذه

أما ما ينسب الى المرأة من الكسل فسنعود الى درسه في فصل الارادة . وانما نقتصر الآن على الاشارة الى انها اكثر نحافة من الرجل واسرع تعباً واشد تأثراً من تقلب الجو . ولعل معظم ذلك نتيجة العادة والتربيـة . فقلما يبدو شيء منه على النساء اللواتي يعملن في المزارع فانهن نظيرات الرجل في الهمة والنشاط والقدرة على العمل . بل في المدن أيضاً تكاد بعض النساء تضاهي الرجال في الحركة ـ بين الاهتمام بامور المنزل والقيام بالواجبات الاجتماعية من زيارات واحتفالات الى غير ذلك من المشاغل الكثيرة التي تستلزم جلداً عظيماً

والجملة ان حاجات المرأة وشهواتها تختلف عن حاجات الرجل وشهواته : في نوعها اولاً . ثم في شدتها ، فهي على العموم اقل شدة واسهل مراساً

المظاهر الوسطى

وما عسانا ان نقول الآن عن الميول المؤلفة من عناصر جسمانية وعناصر نفسانية معاً ـ كغريزة الامتلاك مثلاً ، وغريزة التعلق بالمألوف من الاشياء والامكنة ، وعلى الخصوص غريزة التمسك بالحياة التي يضعها علماء النفس عادة في هذه المرتبة ؟

ان هذه الغريزة الاخيرة متأصلة في اعماق النفس وقلما نجد فرقاً بين الجنسين من هـذا القبيل . فالاختلاف فيها فردي لا جنسي . على ان الشعراء ينسبون حب الحيـاة الى الجنس الضعيف على الخصوص . فالتعلق الشديد بهذا العالم ليس من صفات الرجولة والمتوقع من الرجل ان يكون اجرأ من المرأة واكثر اقـداماً واشد اقتحاماً للاخطار . ولـكن لئن ابدى الرجل شجاعته في ميادين القتال فللمرأة ايضاً ميادين تتجلى فيها شجاعتها . وقد لا تجاوز تلك الميادين حيطان منزل او غرفة مريض بل قد لا تتعدى حد نفسها . وقد قال فيكتور هوغو : « ان ثوران الشعوب ضئيل بجانب ثوران النفوس » . تلك هي شجاعة النساء ولعلها اكثر انتشاراً بينهن من انتشار شجاعة الرجال بينهم

والذي يؤخذ من الاحصاءات ان الرجال اكثر من النساء اقداماً على الانتحار ـ بنسبة ٤ الى ١ ـ ولذلك اسباب كثيرة ليس هذا محل الافاضة فيها

أما غريزة التعلق بما يؤلف من الاشياء والامكنة فطبيعي أن تكون اكثر بروزاً في المرأة نظراً لمعيشتها البيتية الهادئة ، كما انه من الطبيعي أن تستصعب المرأة مفارقة دارها اذا اضطرت الى ذلك . وعلى وجه الاجمال نرى المرأة اشد من الرجل تعلقاً باشيائها المألوفة فهي تعدها بمنزلة تذكارات ثمينة بل تكاد تكون مقدسة في نظرها . على أن ذلك الميل فيها انما ينشأ عن حساستها الفطرية التي تشمل كل ما له علاقة بها وبمن تحبهم . وهذا يعلل لنا ايضاً ضعف الميل المذكور في الرجل على العموم فما ذلك الا لكثرة تنقله بين الاشياء والناس

أما غريزة الامتلاك فبارزة ايضاً في المرأة . ولئن تجسم البخل في الروايات الشهيرة بصورة رجل فقد اتفق الملاحظون على ان المرأة بوجه الاجمال أشد بخلاً من الرجل . وذلك منذ الطفولة ، ولكن على الخصوص في سن الشيخوخة . قالت مدموازيل لوريول التي درست هذا الموضوع في الاحداث درساً دقيقاً : « كثيراً ما يشرك الفتيان بعضهم بعضاً فيما لديهم ، اما الفتيات فانهن أشد ميلاً الى الاحتياز والامتلاك الفردي . فقد يتبادل الفتيان قبعاتهم وكفوفهم بسهولة بينما نرى كل فتاة متمسكة بقبعتها وكفوفها » قالت : « حدث لي غير مرة اني رأيت بين الفتيان من كان يشتري بعض الحلويات بدراهمه ثم يسلمها الى أحد رفاقه ليقسمها بين الجميع . أما الفتيات فاذا اتفق ان جرى بينهن مثل ذلك فان التي تدفع الدراهم لا تتنزل عن حقها في التقسيم »

وقالت مدام دي جيراردان : « اندر ما في فرنسا ـ بعد المرأة الغشيمة ـ انما هو المرأة الكريمة » وهي لا تريد بذلك الكرم في الانفاق فقط بل تشير الى ضروب الكرم المختلفة ـ لانها متماسكة جميعاً ومحكمة القرابة فيما بينها

والذي يؤخذ من كل ذلك ان المرأة ـ لكونها ميالة بفطرتها الى التطرف في كل شيء ـ تغالي في البخل متى نحت ذلك النحو . قال فنلون في كتابه « تربية البنات » : « احذروا أن يتحول فيهن الاقتصاد فيصير بخلاً وبينوا لهن حقارة تلك الرذيلة وانها تكسب قليلاً وتفضح كثيراً . فانما يتأتى الاقتصاد الحقيقي عن النظام والترتيب لا عن الشح والتقتير » أجل ان منشأ البخل في النساء انما هو في الغالب ميلهن الى الادخار

والاقتصاد . و بعبارة أخرى ليس بخلهن الا تطرفاً في فضيلة ممدوحة . ومن ذلك ندرك الصورة التي يتخذها البخل فيهن عادة : فالمرأة لا تطلب الكسب والتحصيل والتجميع وانما تمتنع عن البذل والانفاق وتكره ان تتخلى عما لديها . على أن ضعف المرأة وقصورها وتعرضها للعلل والامراض واهتمامها بأمر الاطفال وتدبير الدار ـ كل ذلك من شأنه ان يحملها على التحوط والتحذر خوف الحاجة والفقر . وقد جاء في كتب علم قراءة الخطوط انه يستدل من خط المرأة على ان بخلها « سلبي » في معظم الاحيان

ولقد ترى بعض النساء شديدات الاسراف والسخاء على هنداماهن وزينتهن من غير ان يكن على شيء من الكرم . فليس البذخ دليلا على الكرم

فليتنبه المربون اذاً الى ما اسلفناه من الميول حتى لا تتطرف المرأة في احدى الجهتين بل تعرف كيف تنفق بترتيب واعتدال

المظاهر الراقية

لننتقل الآن الى الصور النفسانية التي يتخذها حب الذات . فأي تلك الصور اظهر في المرأة ؟ يجب ان نميز في هذا المقام بين عاطفتين او بالاحرى بين نوعين من العواطف : التكبر والعجرفة والفطرسة من جهة ، والعجب والاختيال والميل الى الظهور من جهة اخرى . فانها جميعاً من صور حب الذات . ولكنك في الغالب تجد النوع الاول أظهر في الرجال والنوع الآخر أظهر في النساء . قالت مدام دي ريموزا : « الاحوال التي تحمل الرجل على التكبر قد لا تحمل المرأة الا على العجب والاختيال . فالتكبر ينشأ عن اعتقاد الانسان بقوته وتفوقه ، في حين ان عجبه يتأتى عن التأثير الذي يحدثه في نفوس الغير . و بعبارة أخرى ان هذا الشعور الاخير يستدعي وجود شخص أو أشخاص يقع عليهم التأثير المطلوب ، حالة كون الشعور الاول قد لا يتعدى من يشعر به » . أجل تلك هي الغريزة الفطرية في خلق المرأة فانها تسعى بطبيعتها للتأثير في النفوس . قال فنلون : « لا تخشوا شيئاً كعجب الفتيات وحبهن للظهور . فانهن يخلقن وفيهن ميل شديد الى التأثير ولفت الانظار »

على اننا لا نستثني معشر الرجال من هذه الغرائز الطبيعية . فقد حدث مرة اني سألت

احدى السيدات المستنيرات عن الخلق الذي تظنه مميزاً لجنسها . فاجابت على الفور : « حب الظهور » ثم قالت : « لولا هذا العيب البارز في المرأة لكان لها من براعتها في التكتم ما يؤهلها لادق المراكز السياسية . ولكن ما فيها من العجب بنفسها ومن حب الظهور والتأثير يسهل قيادها والايقاع بها » على أن الصدفة جمعتني بعد قليل باحد رجال السياسة المحنكين فذكرت له ما دار من الحديث بيني وبين تلك السيدة فاجابني في الحال : « انها لفي خطإ عظيم . ومن الجهل تفضيل الرجل على المرأة في هذا الشأن . بل اكاد اقول انه اكثر منها سعياً وراء الظهور . ففي تسع مرات من عشرة تجده مدفوعاً بهذا الدافع الذي يوقعه في زلاته والذي يحمله على افشاء ما ينبغي له كتمانه »

لعلنا الآن اقرب الى انصاف المرأة — لا بانكار ما فيها من حب الظهور والتأثير — بل بانكار انفرادها في هذا الشأن . على ان صور هذا الميل تختلف في الجنسين : فانه في الرجل اقرب الى الغطرسة والاعتداد بالنفس في حين انه في المرأة قرين التيه والدلال — وهو ما يعبر عنه بكلمة coquetterie وما هي الا السعي الفطري في المرأة (وقد لا تتعمده بل قد لا تحسه ولا تدري به) للفت الانظار واستمالة القلوب — ولا سيما انظار الرجال وقلوبهم

هذه حقيقة اتفق في شأنها جميع الذين لاحظوا المرأة ودرسوا أخلاقها بل انها مبتذلة تتداولها ألسنة الصغار والكبار في كل مكان . قال روسو : « تيه المرأة جزء من وظيفتها » . وقال لاروشفوكو : « التدلل أساس مزاج النساء » وقال آخر : « قد تتغلب المرأة على هواها ولا تتغلب على غريزة البهر والتأثير » . ولا غرابة في كل ذلك اذ لا بد للمرأة من لفت الانظار كي تحب — فالحب غايتها القصوى في الحياة — بل انها مضطرة الى ذلك بحكم حالتها الاجتماعية فلا نفوذ لها ولا سلطان الا باستمالة الرجل . هذا هو سلاحها الوحيد في جهاد الحياة ولكنه سلاح لا يستهان به . ولذا فلا لذة عندها تعادل اللذة الناشئة عن فوزها في هذا الميدان وتوصلها الى التأثير في نفس الرجل . قال رينان في مذكراته : « أعظم اطراء في نظر المرأة أن يبين لها ما تحدثه في القلوب من التأثير الشديد » وقال فنلون : « لما كان الطريق المؤدي بالرجل الى السطوة والمجد مسدوداً في وجه المرأة فانها تستعيض منه بلذات العقل والجسد : فمن ثم تنشأ حذاقة النساء في الحديث كما ينشأ اهتمامهن بضروب الزينة والتنميق والزخرفة . فعصابة

الشعر او لون الشريطة او طرز الثوب او شكل القبعة ـ تلك عندهن مسائل خطيرة الشأن »

ان هذه الجملة مع ما فيها من روح الهزء تبين بعض الطرائق التي تتخذها المرأة توصلاً الى غرضها من قلب الرجل . على إن أقدم الطرائق لبلوغ هذا الغرض وأبسطها وأعمها انما هي « الجمال » . ولذا فاول مطمح للمرأة هو أن تحوز اعجاب الرجل بجمالها . واذا لم يتيسر لها الجمال توخت في نفسها الرشاقة أو الذكاء أو رقة الخلق أو طيبة القلب أو غير ذلك . ولكن الجمال هو بلا ريب اول مطامعها حتى أن احذق السيدات واعقلهن وابرعهن لايرتضين ان يطرى حذقهن وعقلهن وبراعتهن اذا اغفل أمر جمالهن

يحكى عن مدام دي ستال الاديبة الشهيرة انها كانت تغار من مدام ريكاميه صاحبة الجمال الرائع . فحدث يوماً ان الكاتب لاهارب دعاهما الى حفلة موسيقية . فجلس بينهما ثم التفت الى صديق خلفه وقال له : « اني جالس بين الذكاء والجمال » (يشير الى رفيقتيه). فما كان من مدام دي ستال الا ان عدت قوله هذا اهانة لها فاتهرته بحدة قائلة : « وهل انا بهيمة في نظرك يا ترى ؟ »

حب المرأة للتقريظ

وخليق بنا الآن ان نذكر بعض آثار هذه الغريزة في خلق المرأة . فمن ذلك تأثرها الشديد من التقريظ الموجه الى محاسنها الجسدية ـ مهما تكن عاقلة رزينة ، بل حتى حين لا يكون ذلك التقريظ مطابقاً للحقيقة . قال أحدهم : « ان تطيق اعقل النساء انتقاداً على جسمها . بل انها تفضل أضأل تقريظ لذلك الجسم على أعظم مدح لسجاياها العقلية » . وقد ألحت مدام غيزو في وجوب الانتباه الى ما يوجه للشابة من صنوف الاطراء . فانها حالما تتجاوز دور الحداثة تصبح وكلها آذان مصغية الى مديحها . وهي بطبيعتها تفضل التقريظ والاطراء على الاكرام والاحترام . فعلى التربية ان تقاوم فيها ذلك الميل . ولله در من قال : « التملق أشد فتكاً في النساء من الحب » . وليس أدل على هذا الخلق في المرأة من نصيحة سيدة نبيلة لولدها الذي كان على وشك الدخول في العالم والتردد على الصالونات وهي قولها له : « ليس لي الا نصيحة واحدة أقدمها لك وهي ان تظهر كأنك تعشق كل النساء »

ومن ذلك أيضاً حب الزينة والتنميق و «التواليت» . وقد سمى أحد الكتاب المجونيين ذلك الميل الغريزي في المرأة « بشيطان التواليت » وعد هذا الشيطان خاصاً بالجنس اللطيف . قال : « كأن الهندام قد أصبح لدى النساء بمنزلة عضو جديد » . ومما يجدر ذكره في هذا المقام ان النساء اجمالاً يخطئن في تقدير تأثير هندامهن وزينتهن في الرجال . اذ قلما يخل الرجال بشيء من ذلك . واذا حفلوا به فانما يعدونه اعترافاً من النساء يسعين لاستمالتهم . بل قد لا يسعهم أحياناً الا الاشمئزاز من ضروب التطرف والمغالاة في هذا الموضوع . هذا اذا لم يكن الرجل الا مشاهداً . أما اذا كان هو المنفق على ذلك فخليق به ان يتذمر — وكثيراً ما نسمع هذا التذمر . قال أحدهم : « من شاء ان يجلب لنفسه الهموم والمتاعب فعليه اقتناء واحد من شيئين : سفينة أو امرأة . فليس في العالم شيء مثلهما يصعب تجهيزه » ومن ألطف ما قيل في هذا الباب قول لابرويير منتقداً المغالاة في أساليب الزينة والتنميق والزخرفة — ولا سيما متى تقدمت المرأة في السن : « .. كأن تقبيح شكلهن لا يتأتى لهن بالسهل فيبذلن في سبيله جهداً جهيداً »

ولا يقتصر هذا العيب على ضروب التحسين الجسماني بل يتناول كذلك سعي بعض النساء للظهور بمظهر التفنن في الحديث والبراعة في التنكيت . فالتصنع في هذا الباب مدعاة للهزء والسخرية . وعلى الاجمال — مهما تكن الغاية التي ترمي اليها المرأة — فانها تقلل بلا ريب من حسنها متى تعمدت تحسين نفسها . ولله در ماريفو القائل : « بعض النساء جديرات بأشد الاعجاب لو لم يعلمن انهن جديرات بذلك »

الحسد

ولعل أسوأ ما في طلب الظهور والتأثير انه يرافقه غالباً تنافس حاد بين النساء يدفع كل واحدة منهن الى طلب التفوق على نظيراتها . وكثيراً ما يحملهن هذا الميل الى انتهاج مسالك غير قويمة . ولله در مدام دي جيراردان القائلة : « لا تقنع المرأة بالمديح متى شاركتها فيه امرأة أخرى » فانها تعد ما يناله غيرها كأنه مسلوب من حقها وما يرفع شأن غيرها كأنه خافض لشأنها . ولعل ذلك منشأ ما يحدث بين النساء من التباغض الذي يضرب بحدته المثل وما يظهرن من الخبث والرداءة . ولذا تجب مراقبة تلك الغريزة في الفتيات على الخصوص . فانهن أشد انقياداً اليها من الفتيان . فلقد عرفت فتيات

تسمم شبابهن من جراء هذا الضعف الخُلُقي . فسرعان ما تتحول المباراة والمنافسة الى تحاسد وتغاير . وهو ما يعلل لنا انهام الكثيرين للمرأة بتأصل هاتين الرذيلتين في خلقها

على ان الغيرة جديرة بالاحترام بل بالشفقة متى تأتت عن خوف المحب ان ينتزع منه حبيبه . ولكن بين غيرة الرجل وغيرة المرأة فرقاً جوهرياً بيّنه الفيلسوف كَنْت بقوله : « يغار الرجل متى أحب . أما المرأة فقد تغار من غير ان تحب اذ تعد كل ظريف ينحاز الى نظيراتها بمنزلة حبيب تفقده »

أما الحسد فقد يؤدي بالمرأة الى اوخم العواقب اذ يدفعها الى مجاراة زميلاتها في كل شيء حتى لقد تلجأ « الى بيع الخراف لجلب الحرير والى اكل الخس لاقتناء الاواني » كما يقولون

وأشد ما يكون الخطر على المرأة من جراء ذلك زلل قدمها في سبيل الغواية والفساد . فكثيراً ما ترى في النساء ـ حتى الشريفات منهن ـ رغبة خفيّة في اجتذاب كل متعشق يحوم حول نظيراتهن . أضف الى ذلك ما يترتب على هذه المنافسة من الضغائن الخبيثة والحزازات القتالة تدرك مراد الكاتب اللاتيني (بروبرس) القائل : « أشد الحقد والبغض ما نشأ عن الحب » على انه يجدر أن يضاف الى هذه الجملة قولنا : « . . . وما نشأ ايضاً عن التنافس في طلب الظهور والتأثير »

وقد يؤدي ذلك بالمرأة الى التهكم والاستهزاء فترى استهزاءها اذ ذاك قرين الخشونة والرداءة مما ليس فطرياً فيها . فان الفتاة متى جاوزت سن البلوغ تخشى عادة أن ينالها شيء من الاستهزاء وهذا ما يجعلها ان تتحاشى خدش احساس الغير بل يجعلها تجتنب المداعبة البسيطة ولا سيما في موضوع الزواج

الطموح

هل في المرأة طموحٌ الى العلا والرفعة والعظمة ، وهل الطمع من طبائعها ؟ تتعذر الاجابة عن هذا السؤال لانه لم يتح للمرأة بعد أن تبدي ميلها من هذا القبيل اذ لا تزال ابواب السعي ضيقة في وجهها . على أن ذلك الطموح مشاهد في المدرسة بين الفتيات والفتيان على السواء . بل لقد قالت احدى المربيات أنه في الفتاة أشد منه في الفتى وايدت ذلك بقصة تلميذة كانت دائماً الاولى في صفها فوجدتها يوماً كئيبة تترقرق الدموع

في عينيها و بعد الاستفحاص فهمت أن سبب ذلك هو ان الفتاة مع كونها لا تزال الاولى في جميع الدروس فقد شق عليها ان يكون الفرق في العلامات هذه المرة بينها و بين الثانية أقل من المعتاد

اما الطموح الى المراكز الرفيعة بين الناس فلا ريب في انه من أشهى مبتغيات المرأة لانه يؤدي الى الظهور والتفوق . على أن هذه العاطفة فيها تمتاز بكونها تتناول الاسرة جميعاً فالمرأة تود أن ترى زوجها واولادها ودارها في تقدم مستديم . فتلك مفخرتها العظمى . ولكنها كثيراً ما تتجاوز ذلك الى المفاخرة باصلها وبآبائها ولا سيما عند ما يقع من المشاحنة بينها و بين زوجها

على ان هذا التفاخر كثيراً ما يشاهد في الرجال ايضاً . ولكنه أخف فيهم على الاجمال . ولعل ذلك لان الرجل صاحب شخصية قوية مستقلة تجعله يعتمد على نفسه ويفتخر بمآثره في حين أن المرأة مضطرة الى الاستناد على شيء خارج عنها لتفاخر به كاصلها وأسرتها وزوجها

ولذا فطموح المرأة على الغالب متعلق بزوجها . على انها تحفل بكرامة مركزه عند الناس اكثر مما تحفل بأهمية ذلك المركز في الواقع ، أي انها تعنى بمظهره اكثر من عنايتها بحقيقته . ومن ذلك يتبين لنا اهتمام المرأة بما يناله زوجها من الرتب والنشانات . فقلما تجد امرأة لا ترغب في ذلك

حب السيطرة

هل نعد حب السيطرة بين طبائع المرأة ؟ لا يجوز لنا الاجابة بالايجاب الا اذا عنينا بذلك ما فيها من الميل الفطري الى التسلط على قلب الرجل ولاسيما قلب زوجها . فانما تحملها على ذلك وظيفتها النسائية وهي كما رأينا لا تنال شيئاً الا بالحظوة في عين الرجل . أما السيطرة الواقعية بمعنى الاستبداد والاستعباد فليست من فطرتها وقد لوحظ « أن الفتى يحب التأمر في حين أن الفتاة لا تحفل الا بالاكرام والتقريظ »

الا ان المرأة الخاضعة لزوجها المطيعة لرغائبه كثيراً ما تكون ميالة الى الاستبداد بخدامها والتجبر على من هم دونها . تلك خساسة معهودة في كل من كان مذلولاً لسيده كأن الخشونة مع المرؤوس انتقام من الرئيس . وليس هذا الخلق مقصوراً على جنس دون آخر